التّاريخ والعلوم المساعدة

"التاريخ فن عزيز المذهب، جم الفوائد..." ابن خلدون.

يعتبر التاريخ علما قائما بذاته شأنه شأن باقي العلوم الإنسانية ، والاجتماعية التي حاولت سبر القضايا الإنسانية في إطارها المجتمعي. ونظرا لأهميته في استقرار الدول وتغيرها، خضع لمجموعة من الدراسات النظرية والعلمية ، بحيث حاولت عزله عن "البدع" السياسية ؛التي وجهت أهدافه "النبيلة" نحو غايات "ذنيئة" مغرضة تهدف إلى تزوير التاريخ وتخدير الشعوب بأحداث رسمية.

وقد فطن العلامة ابن خلدون في "مقدمته" إلى هذه الإشكالية، حين أشار إلى أخطاء منهجية وقع فيها المؤرخون بقصد أو عن غير قصد؛ يمكن إجمالها في:

-عدم التزام الموضوعية.

_الجهل بطبائع العمران ومفهوم التطور.

أمام هذا الوضع وارتباطا بالأحداث التي عاشتها المجتمعات الغربية منذ القرن 15 م؛ بفعل الاكتشافات العلمية والانفتاح على العالم، شهدت الساحة الفكرية التاريخية تطورا منهجيا مفعما بروح النقد و علمنة العقل والتاريخ ، الأمر الذي سيظهر بشكل بارز مع "ولادة" العلوم الاجتماعية في القرن 19،وماترتب عنها من خلافات نظرية وفكرية بين المؤرخين والسوسيولوجيين....

لكن سرعان ما ستتبدد هذه الخلافات مع بداية القرن 20م، بعامل انفتاح العلوم الاجتماعية على بعضها البعض ،وإقامة علاقة "صداقة" ؛أو "مقايضة مفاهيمية" تصبو إلى حصر إشكالية الوجود الإنساني، وإعادة بنائه من خلال ربط الماضي بالحاضر واستشراف المستقبل.

إن علم التاريخ؛علم يحتاج إلى تأمل نظري عميق و ترسانة مفاهيمية نسبية، تفتح أفاقا للربط بين مختلف المناهج والعلوم الإنسانية،مما قد يجعلنا نردد يوما ما مع العالم الاجتماعي الأمريكي "ريمون أرون" ".....فبين العلوم الإنسانية كلها، وبدون استثناء يأخذ التاريخ مركز الصدارة شريطة أن يكون المؤرخ عالما اقتصاديا أولا، وعالما اجتماعيا ثانيا..." .فكيف يمكن تتويج التاريخ والرقي به، وإعادة الاعتبار إليه ؟

ماهية التاريخ والعلوم المساعدة لدراسته

مَن لا تاريخ له لا حاضر له، فالتاريخ دومًا هو الحافز والدافع للإنسان أن يتقدم ويُحرز شيئًا، فالتاريخ البشري بشكل عام هو علم تخصص به الدارسون وأفردوا لهُ جانبًا عظيمًا من الاهتمام.

فلا شك أنَّ علم التاريخ كباقي العلوم يستند على حقائق علمية ثابتة من خلال الأدلة المروية عن المكان والإنسان، ومن خلال الأدلة المشاهدة الماثلة للعيان. فعلم التاريخ يقوم بتأصيل الأحداث والوقائع الهامة التي مرت على الأرض قبل الحياة البشرية، والأحداث التي جرَت بسبب الإنسان وهو ما يُعرف بالتاريخ البشري أو التاريخ الإنساني.

فعلم التاريخ ـ إذًا ـ يُعطي تصورًا دقيقًا وواضحًا عن العالم القديم، والتجارب التي مرَّ بها الإنسان، وبالتالي تكون هذه الدراسة بابًا من تجنب ما وقعَ بهِ الأقدمون من الأخطاء والتي جرّت عليهم الويلات والدمار. فعلم التاريخ هو دروس ماضية تُفيدنا للتخطيط المستقبلي.

أما عن إشكالية الدراسة، فيأتي في مقدمتها أن علم التاريخ أحد العلوم الإنسانية؛ فهو متعدد الأغراض والمناهج .لذا فمما يجب على الباحث في هذا العلم أن يكون مُلمًا بعدد من العلوم المساعدة لدراسته وفهمه، ومن ثم يستطيع مواصلة البحث للوصل إلى الحقيقة قدر المستطاع. يقول ابن خلدون:" إن فن التاريخ محتاج إلى مآخذ ومعارف متنوعة وحُسن نظر وتثبت يُفيضان بصاحبهما إلى الحق، وينكبان به عن المزلات والمغالط"

هذا، وقد تخطى النقاش كون التاريخ علمًا أم أدبًا، وتوقف المؤرخون أمام التاريخ كموضوع حيوي لذاته وله أهدافه وموضوعه وأهميته وأسسه وطرائق بحثه. وحتى نبحث في هذه المادة المهمة وتكون الفكرة أكثر وضوحًا، تواجهنا أسئلة متعددة وسنحاول الإجابة عليها قدر المستطاع في هذا البحث الموجز. ومن هذه الأسئلة، ما هو التاريخ؟ وما هو الموضوع الذي يتحدث فيه؟ وماهي أهمية دراسة التاريخ للإنسان؟ وماهي العلوم التي يجب على الباحث في هذا العلم أن يكون مُلمًا بها؟ وماذا تقدم هذه العلوم المساعدة للباحث في التاريخ؟ وما مدى صلتها بعلم التاريخ؟

الفصل الأول: ماهية التاريخ

يعتبر التاريخ المادة الرئيسة والأساسية التي اختص بها عدد كبير من أهل العلم ؛ وذلك لأهمية علم التاريخ في حياة الشعوب. إن التاريخ هو السجل الكامل لمختلف الوقائع التي وقعت على وجه الأرض منذ بدأ الخليقة إلى يومنا هذا، لذا فهو واحد من أهم العلوم التي تدرس باستمرار في مختلف دول العالم.

إن للتاريخ أهمية قصوى في حياة الأمم والشعوب، لذا نجدها قد أولته رعايتها البالغة، وسعت إلى جمعه في شكل مدونات عن سير الأجداد أو عبر المحافظة على الموروثات أو من خلال القصص الشعبي؛ ليؤدي دورًا مهمًا في تعبئة وجدان الناشئة، حتى ينشب الشبل ناسجًا على منوال أجداده، محافظًا على قيم شعبه الموروثة كابرًا عن كابر.

هذا، وقد احتل التاريخ مكانة عظيمة عند المسلمين، وذلك بتوجيه من القرآن الكريم، قال تعالى:]لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ[، وقال أيضًا :]فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ .(بل إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أمر المسلمين أن يطيلوا النظر في مصائر الغابرين من الشعوب السابقة عِظة واعتبارًا، فقال:]أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ .فدراسة التاريخ عند المسلمين ليست للتسلية ولا لإضاعة الوقت وملء الفراغ أو لمجرد المعرفة وحفظ الحكايات، خاصة تاريخ الأمة الإسلامية على مر العصور وكر الدهور؛ وإلا لما ذكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ تاريخ السابقين وقصص النبيين في كتابه العظيم.

- **معنى التاريخ في اللغة:**

التأريخ في اللغة مصدر من أرخ بلغة قيس وهو اللفظ الشائع عند العرب ، وتاريخ كل شيء من حيث اللغة هو غايته ووقته الذي ينتهي إليه ، ولهذا يقال : فلان تاريخ قومه في الجود أي الذي انتهى إليه ذلك.و ربما استعملت الكلمةبمعني تراجم الرجال(الببليوجرافيا)، ومثال ذلك تاريخ البخاري للإمام محمد بن إسماعيل البخاري(194 ـ 256هـ / 810 870 – م). وقد تستعمل بمعنى أخبار الماضي كعنوان'' تاريخ الرسلوالملوك'' للإمام محمد بن جريرالطبري (224 – 310 هـ / 839 – 923 . .(وهناك اختلاف بين العلماء في أصل لفظ '' تاريخ '' هل هو لفظ عربي أم هو لفظ فارسيثم استخدمه العرب.

- **معنى التاريخ في الاصطلاح:**

أما المعني الاصطلاحي للتاريخ عند أغلب المؤرخين فهو يقتصر على التقصي وطلب الحقائق عن تلك الأحداث التي وقعت في الماضي.

هذا، وقد اختلف المؤرخون في تعريف التاريخ،فعرفه ابن خلدون(المتوفى عام:808هـ/1405م) بقوله :''فنّ التّاريخ من الفنون التي تتداوله الأمم والأجيال وتشدّ إليه الرّكائب والرّحال..... إذ هو في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيّام والدّول ..... وفي باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيّات الوقائع وأسبابها عميق. ويقول السَّخَاوي (831 – 902 هـ / 1427 – 1497 م) : ''إن التاريخ فن يُبحث عن وقائع الزمان من حيث التعين والتوقيت وموضوعه الإنسان والزمان .بينما عرفه الكافِيَجي(788 – 879 هـ /

1386 – 1474 م) ، بأنه " تعيين وقت لينُسب إليه زمان مطلقًا سواء كان مضيًا أو كان حاضرا أو سيأتي ." ويعرفه المؤرخ الإنجليزي هرنشو Hearnshaw(1869 ـ 1946م) بقوله:" قد تدل كلمة تاريخ على مطلق مجرى الحوادث الفعلي الذي يصنعه الأبطال والشعوب ، والتي وقعت منذ أقدم العصور واستمرت وتطورت في الزمان والمكان حتى الوقت الحاضر."

هذا، وقد يظن البعض أن التاريخ ما يبحث في أحداث الماضي وحده، وهذا الاعتقاد ليس صحيحًا؛ فالتاريخ يبحث في الماضي والحاضر والمستقبل معًا.وعلى ضوء هذا، فإن كلمة التاريخ " تعني مجموعة الأحداث التي وقعت في الماضي والتي تقع حاليًا، ثم التنبؤ على هدى ذلك وفي ضوئه بما سوف يقع مستقبلًا.

هناك اختلاف بين أهل العلم والتاريخ والأدب في وضع التاريخ وإلى أي فرع يُنسب من فروع الإنسانية. فبعض العلماء ومنهم المستشرق (و.س. جيفونز)، قال: "لايمكن أن يكون التاريخ علمًا لأنه يعجز عن إخضاع الوقائع التاريخية لما يخضعها له العلم من المعاينة والمشاهدة والفحص والاختبار والتجربة ، وبذلك لايمكن في دراسته استخلاص قوانينعلمية يقينية ثابتة، نحو ما هو موجود بالنسبة للعلوم الطبيعية كعلم الكيمياء مثلاً.وقد أيد هذا الرأي (كارل بوير) في كتابة " عقم المذهب التاريخي " ومن الأدلة التي أوردها على كذب المذهب التاريخ: إن التاريخ الإنساني يتأثر في سيره بنمو المعرفة الإنسانية وهذا يوضح عدم إمكانية التنبؤ بكيفية نمو معارفنا العلمية، وبالتالي فلا يمكن التنبؤ بمستقبل سير التاريخ الإنساني وهذا يعني أنه يجب أن نرفض إمكان قيام علم تاريخي اجتماعي.

أما بعض رجال الأدب فيرون أنه فن من الفنون : "وإن العلم لا يمكنه أن يعطينا عن الماضي سوى العظام المحروقة اليابسة وأنه لابد من الاستعانةبالخيال لكي تُنشر تلك العظام وتُبعث فيها الحياة، ثم هي بحاجة كذلك إلى براعة الكاتب حتى تبرز في الثوب اللائق بها".

ويؤيد ابن خلدون هذا الرأي بوصف التاريخ فن من الفنون، ففي مقدمته عرف التاريخ،بقوله:" إن فن التاريخ من الفنون التي تتداولها الأمم والأجيال ، وتشد إليه الركائب والرحال وتسمو إلى معرفته السّوقة والأغفال وتتنافس فيه الملوك والأجيال ، ويتساوى في فهمه العلماء والجهّال ويتفق مع هذا الرأي بعض المؤرخين الذين يروون أن التاريخ نوع من الأدب فهو يهتم بالتدوين القصصي للأحداث. والقصة نوع من الإنشاء الأدبي، وهو فن يحتاج إلى براعة الكاتب ليظهر لنا القصص التاريخية بمظهرها المناسب.

ويرى كثير من العلماء والمفكرين القدماء والمحدثين، من أمثال:أفلاطون وهيجل وماركس و أوجست كونت، أن التاريخ علم يبحث في الماضي ويتبع تطور المجتمعات في العصور السابقة. ويخلص المؤرخ الإنجليزي بيوري الموضوع بقوله: " إن التاريخ علم لا أقل ولا أكثر.

ويرد هرنشو على مَن قال : إن التاريخ ليس بعلم، بقوله: " إنه على الرغم من أنه لايمكننا أن نستخلص من دراسة التاريخ قوانين علمية ثابتة على غرار ما هو كائن في العلوم الطبيعية فإن هذا لا يجوز أن يجرده من صفة العلم .ويرى أنه يكفى في إسناد صفة العلم إلى موضوع ما أن يمضى الباحث في دراسته، مع سعيه إلى توخي الحقيقة وأن يؤسس بحثه على حكم ناقد أطرح منه هوى النفس، وباعد نفسه عن كلافتراض سابق، مع إمكانية التصنيف والتبويب فيه.

ويضيف هرنشو: إن التاريخ ليس علم تجربة واختبار بل هو علم نقد وتحقيق وإن علم الجيولوجيا هو أقرب العلوم الطبيعية إليه، فالمؤرخ والجيولوجي يدرسان آثار الماضي ومخلفاته حتى يستخرج ما يمكن عن الماضي والحاضر على حد سواء، بل عمل المؤرخ يزيد عن عمل الجيولوجي بدراسته وتفسيره العامل البشرى الانفعالي للوصول إلى الحقائق التاريخية قدر المستطاع.

وعلى ذلك، يمكن القول: إن التاريخ مزاجًا من العلم والأدب والفن في آن واحد.

- **أهمية دراسة التاريخ:**

منذ القدم عرف الإنسان أهمية التاريخ وقيمته لذلك اهتم بدراستهوسارع إلى تدوين أخبار الإنسانية بداية على الذاكرة ثم على المباني والمنشآت والأحجار ثم دونت في الكتب . وذلك لمحاولة فهم أحداث التاريخ وتحليلها، وتفسير الأحداث البارزة، والاستفادة من تجارب التاريخ السابقة.

وعبر عن أهمية التاريخ السياسي الروماني شيشرون (106-43 ق.م) بقوله: " مَن لا يعرف التاريخ يبقي طفلًا أبد الدهر.

وقد رأى المؤرخون المسلمون أن دارسة التاريخ فيه عبر ومواعظ ودروس وتجارب، تجعل الدارس يتعلم من أخطاء الماضي،ويقف على أسباب سقوط الدول وانهيار الحضارات، كما أنها تدفع بالدارس إلى الاقتداء بالشخصيات التاريخية البارزة كالرسل والقادة والعلماء.يقول ابن الأثير:" إِنَّ الْمُلُوكَ وَمَنْ إِلَيْهِمُ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ إِذَا وَقَفُوا عَلَى مَا فِيهَا مِنْ سِيرَةِ أَهْلِ الْجَوْرِ وَالْعُدْوَانِ وَرَآهَا مُدَوَّنَةً فِي الْكُتُبِ يَتَنَاقَلُهَا النَّاسُ فَيَرْوِيهَا خَلَفٌ عَنْ سَلَفٍ، وَنَظَرُوا إِلَى مَا أَعْقَبَتْ مِنْ سُوءِ الذِّكْرِ وَقَبِيحِ الْأُحْدُوثَةِ وَخَرَابِ الْبِلَادِ وَهَلَاكِ الْعِبَادِ وَذَهَابِ الْأَمْوَالِ وَفَسَادِ الْأَحْوَالِ اسْتَقْبَحُوهَا وَأَعْرَضُوا عَنْهَا وَاطَّرَحُوهَا. وَإِذَا رَأَوْا سِيرَةَ الْوُلَاةِ الْعَادِلِينَ وَحُسْنَهَا وَمَا يَتْبَعُهُمْ مِنَ الذِّكْرِ الْجَمِيلِ بَعْدَ ذَهَابِهِمْ، وَأَنَّ بِلَادَهُمْ وَمَمَالِكَهُمْ عَمَرَتْ وَأَمْوَالُهُمْ دَرَّتِ اسْتَحْسَنُوا ذَلِكَ وَرَغِبُوا فِيهِ وَثَابَرُوا عَلَيْهِ وَتَرَكُوا مَا يُنَافِيهِ هَذَا سِوَى مَا يَحْصُلُ لَهُمْ مِنْ مَعْرِفَةِ الْآرَاءِ الصَّائِبَةِ الَّتِي دَفَعُوا بِهَا مَضَرَّاتِ الْأَعْدَاءِ وَخَلَصُوا بِهَا مِنَ الْمَهَالِكِ وَاسْتَصَانُوا نَفَائِسَ الْمُدُنِ وَعَظِيمَ الْمَمَالِكِ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِيهَا غَيْرُ هَذَا لَكَفَى بِهِ فَخْرًا.

ومما سبق يمكن القول، إن دراسة التاريخ ضرورة لاغني عنها ليس لمعرفة الماضي فقط بل لفهم الحاضر والتخطيط للمستقبل.

ويؤيد هذا الرأي العلامة ابن خلدون بقوله: " اعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب جم الفوائد شريف الغاية، إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم وسياستهم حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا.

كما بين السخاوى فائدة التاريخ؛ وهي معرفة حقيقة الأمور وكذلك أنه أحد الطرق التي يمكن بها معرفة النسخ في أحد الخبرين المتعارضين المتعذر الجمع بينهما.

ولاشك أن الإنسان لا يستطيع معرفة نفسه وحاضره دون أن يعرف الماضي، ومن خلال فهمه للماضي يستطيع الحصول على خبرات السنين السابقة، والتدبر في حوادث الماضي يجعل الإنسان بعيدًا عن ذاته، فيرى مالا يراه في نفسه بكل سهوله من محاسن الآخرين وعيوبهم، مما يجعله أكثر قدرة على معرفه نفسه وأقدر على حسن التصرف في مواجهة المواقف في الحاضر والمستقبل.

إن ماضي الشعوب والإنسان مليء بالأحداث المختلفة وله مكانته عند الإنسان في كل أدواره ومراحله، سواء كان عصر المجد والقوة والرفاهية، أم عهد النكبات والآلام والمحن، والأقوام الذين لا يعرفون ماضيهم لا يعتبرون من الشعوب المتحضرة.

صفوة القول، أنه لا غني للإنسان عن دراسة ماضيه باعتباره كتابًا اجتماعيًا، فينبغي عليه أن يعرف تاريخ تطوره وتاريخ أعماله وآثاره ليدرك ما هو حقٌّ وإلى مَن ينتمي.

- **موضوع علم التاريخ :**

كثير من الباحثين يتسألون عن موضوع علم التاريخ هل هو سير الملوك والأمراء وسير الأبطال الذين قادوا الأمم والشعوب؟! أم هو قصة لحياة طبقة من الطبقات دون غيرها؟! هل التاريخ يعني بدراسة الناحية السياسية فقط أم هو شامل للنواحي الاقتصادية والاجتماعية والعقلية والفنية للحياة الإنسانية؟!

يرى بعض المؤرخين: إن موضوع علم التاريخ هو البحث عن نوع معين من الحقائق، وهو جهود وانجازات الإنسان في الماضي.

بينما يرى فريق آخر: إن التاريخ هو العلم الذي يحاول الإجابة عن الأسئلة التي تتعلق بالجهود التي قامت بها الإنسانية منذ بدايتها سواء في النواحي السياسية أوالاقتصادية أو الاجتماعية أو الثقافية أو الفنية.

وعلى كل حال، فإن التاريخ يكشف لنا ثمرات العقل الإنساني من علم وأدب وفن وما مرت به الدول والشعوب من كوارث ومحن وآلام ومصاعب، وما أرتقت إليه من مجد وعظمة.إن التاريخ يبين لنا مراحل تطور الإنسانية السياسي والاجتماعي والفني .يقول السخاوى: ''وأما موضوع التاريخ فالإنسان والزمان، ومسائلة أحوالهما المفصلة للجزئيات تحت دائرة الأحوال العارضة الموجودة للإنسان وفي الزمان.

- **أطوار الكتابة التاريخية:**

مرت الكتابة التاريخية في أطوار متعددة ، ففي الوقت الذي كان التاريخ مجرد سرد للأحداث أو تدوينها دون نقد أو تمحيص أو محاولة التثبت من صحتها، كان أول صورة دون بها التاريخ كانت في صورة قصصية. حيث ذكرت الأخبار الأولى عن الأحداث التي مرت بالخليقة منذ نشأتها الأولى كقصة خلق الإنسان ، والطوفان .... إلخ. فقد بدأ الإنسان منذ فجر الخليقة يحكي لأبنائه وأحفاده القصص عن الأجداد والسلف. وبالطبع امتزج هذا القصص الحقيقي بالخيال' وبذلك بدأ الإنسان يهتم بأخبار أسلافه السابقين. ولعل الهدف الأساسي هو اتخاذ العظة والعبرة من الماضي ، وتوضيح الحاضر ، والنظر إلى المستقبل في ضوء هذا الماضي بعظاته وعبره.

هذا، وقد مرت الكتابة التاريخية بعدة مراحل، منها: أيام المصريين القدماء، وقد أثرت المسيحية في تقييد الأحداث التاريخية' ثم اتسع مفهوم علم التاريخ عند العرب، فكان منه: القصص والأساطير الشعبية' ثم ظهر مؤرخو المغازي والسير ومن أشهرهم:موسى بن عقبة (المتوفى عام: 141هـ758 /م)، ومحمد بن إسحاق (المتوفى عام: 150هـ/ 768م)، ومحمد بن عمر الواقدي 207 – 130)هـ / 747 – 823 م) ، وابن هشام(محمد عبد الملك بن هشام المعافري، المتوفى عام: 213 هـ/ 828 م)، ومحمد بن سعد (168 – 230 هـ / 784 845 –م)، وغيرهم.

ومنذ أوائل القرن الثالث الهجري /التاسع الميلادي، توسع المؤرخون المسلمون في تسجيل الأحداث التاريخية، فقد توفرت لديهم مادة تاريخية من خلال الدواوين؛ ومنها: ديوان الإنشاء ، وديوان الجند، وديوان الخراج ، وديوان البريد ...إلخ .بالإضافة إلى اطلاع المؤرخين المسلمين على الكتب التي ترجمت من اللغات الأجنبية كالفارسية والهندية واليونانية والرومانية إلى اللغة العربية'

ثم كان للضعف السياسي في العصر العباسي الثاني أثره في حركة التدوين التاريخي،فكان لظهور الدويلات المستقلة عن الدولة العباسية أثرٌ على الكتابة التاريخية، فبدأ يظهر ـ بوضوح ـ ما يعرف بكتابة التاريخ المحلي ومنها:

كتاب''فتوح مصر'' لابن عبد الحكم)المتوفى عام: 257هـ / 871م) ، وكتاب'' ولاة مصر وقضاتها'' للكندي(محمد بن يوسف الكندي، المتوفى عام: 350 هـ/ 961م)، وكتاب''تاريخ مدينة دمشق'' لابن عساكر(علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي، المتوفى عام:571هـ1125 /م)، وكتاب''البيان المغرب في أخبار المغرب'' لابن عذارى المراكشي):المتوفى نحو: 695 هـ / نحو 1295 م.

ومع ذلك ، فقد استمرت حركة التدوين في التاريخ العام للمسلمين، مثل :كتاب'' تاريخ الرسل والملوك''للطبري(محمد بن جرير بن يزيد بن كثير ، المتوفى عام: 310هـ/922م) ، وكتاب'' مروج الذهب ومعادن الجوهر'' للمسعودي(على بن الحسين بن على، المتوفى عام: 346هـ/957م (، وكتاب'' تجارب الأمم'' لابن مسكويه(أحمد بن محمد بن يعقوب، المتوفى عام421 :هـ/ 1030م)، وكتاب'' الكامل في التاريخ'' لابن الأثير(على بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، المتوفى عام: 630هـ / 1233م)، وكتاب'' المختصر في أخبار البشر'' لأبي الفدا(إسماعيل بن علي بن محمود بن عمر بن شاهنشاه، المتوفى عام: 732هـ /1331م)، وكتاب'' العبر وديوان المبتدأ والخبر'' لابن خلدون(عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، المتوفى عام:808هـ/1405م)، والذي ذكر في مقدمته فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه ، وأشار إلى أخطاء المؤرخين ، فحذر من الوقوع تحت تأثير النقل من الأقدمين ، دون مراعاة لأصول البحث العلمي في النقد.

هناك كثير من الصفات التي يجب أن يتحلى بها الباحث في مجال التاريخ، إضافة إلى استخدام المنهج التاريخي استخدامًا سليمً،ا والتزود بالمهارات والمعارف والعلوم المساعدة لدراسة التاريخ ، تكتسب البحوث في حقل التاريخ صفتها العلمية .ويصبح التاريخ علمًا من العلوم يختلف في منهجه عن مناهج العلوم الطبيعية من بعض الوجوه ويتفق معها من وجوه أخرى، دون أن يلغي اختلافه عنها صفته العلمية التي يكتسبها من كونه يمتلك منهجًا متدرج الخطوات واضح الهدف يبدأ بالتساؤل وينتهي بإعطاء الإجابات العلمية المتسمة بالحياد والموضوعية والمبنية على جهد بحثي منظم.

الفصل الثاني: العلوم المساعدة لدراسة التاريخ

إن المؤرخ أو الدارس للتاريخ عليه أن يعلم إن هذه الدراسة تتطلب منه الجد والاجتهاد والمثابرة والصبر والنصيحة . والتاريخ شأنه شأن بقية العلوم والمعارف؛فالعلوم الإنسانية متداخلة ومترابطة فيما بينها، بحيث لا يمكن أن تدرس علمًا مستقلًا عن بقية العلوم والمعارف الأخرى. فعلى سبيل المثال، لا يستطيع الدارس أن يفهم معاني القرآن الكريم دون أن يتقن اللغة العربية، وعلوم القراءات....وكلما ازدادت معرفته بهذه العلوم ازداد فهمه ومعرفته بمعاني القرآن الكريم.

ونِعْمَ ذلك المثال بالشبه لدراسة علم التاريخ والتي تحكمها علاقة قوية بمختلف أنواع المعارف الإنسانية،لهذا كان لزامًا على المؤرخ أن يكون واسع الثقافة، عالما بالعلوم المتصلة بدراسة التاريخ وكتابته. فالمؤرخ يحتاج إلى مجموعة من العلوم المساعدة التي تساعده وتعينه على الوصول إلى الحقيقة التاريخية.

ويجدر بنا الإشارة هنا إلى أن هذه العلوم تختلف أهميتها بالنسبة للمؤرخ باختلاف العصر أو الموضوع الذي يود دراسته والكتابة عنه. فمثلاً، العلوم المساعدة لدراسة تاريخ مصر القديم تختلف عن العلوم المساعدة لدراسة تاريخ الفتوحات الإسلامية.وهذا يعني أن المؤرخ ممكن أن يستخدم أحد العلوم المساعدة عند دراسته لموضوع معين ولايستخدمه عن دراسة لموضوع آخر.

وعلى ذلك، يمكن تقسيم العلوم المساعدة في دراسة علم التاريخ إلى قسمين:

أولهما: العلوم الاجتماعية. ثانيهما: علوم الأركيولوجيا والتراث.

العلوم الاجتماعية:

يعتبر علم التاريخ فرعًا من فروع الدراسات الاجتماعية، ولذا فهو على صلة وثيقة بالعلوم الاجتماعية الأخرى كعلم النفس وعلم الجغرافيا وعلم الاقتصاد وعلم الإنسان. وهذه الصلةتجعل من واجب المؤرخ والباحث في التاريخ أن يكون لديه معرفة بهذه العلوم، إذ بدون هذه المعرفة لا يمكن أن يؤدي رسالته كباحث تاريخي بالصورة المطلوبة.

ومن أهم العلوم الاجتماعية التي يمكن أن يستفيد منها المؤرخ والباحث في التاريخ ، ما يلي:

1. علم الإنسان (الانثروبولوجيا

إن المؤرخ لابد أن يكون على علم ودراية بأكثر العلوم التي تسانده على الإجادة والإفادة وفي مقدمتها علم الإنسان الذي يعتبر بالنسبة للأجناس البشرية مرآة حياتهم وحضاراتهم، ومن خلاله يستطيع الوصول إلى أفكارهم وعواطفهم الإنسانية.

كما أن علم الإنسان يعتبر أقرب العلوم الاجتماعية ملائمة للتاريخ، لأن المشكلات التي يواجها علماء الإنسان والمؤرخون أغلبها مشتركة، والخط الفاصل بين هذين العلِمين غير واضح.فعلماء الإنسان يعكفون على دراسة ثقافة الإنسان البدائي، أما علماء التاريخ فيدرسون الإنسان المتحضر. وتتفق مكانة علم الإنسان وعلم التاريخ في باب العلوم الإنسان العملية إذ إن مادتيهما ذات صبغة عامة، وأن علم الإنسان موجود كالميدان الذي يلتقي فيه كل من له اهتمام بالإنسان.

إن علم الأنثروبولوجيا يتعرض إلى المسائل التاريخية عندما يتتبع التطور البشري وانتشار السكان على سطح الأرض، وبداية ظهور الثقافات والحضارات والهجرات والبناء الاجتماعي. ومن هنا أستطيع القول:إن الثقافة تعتبر إحدى المفاهيم الكبرى لعلم الإنسان، كما أن التاريخ يعتبر سلسلة متتابعة من ثقافات متميزة، فكل تاريخ يتولد من ثقافة، كما أن كل ثقافة تتولد من تاريخها.

وفي الحقيقة، إن الثقافات محصلة التاريخ ونتاجه، إلا أن التاريخ يتأثر بطبيعة الإنسان البيولوجي وبيئته المادية . وغالبًا ما يكون هناك اقتران بين المنطقة الثقافية بالعوامل المعينة الأخرى التي تحدد المنطقة جغرافيًا. إن حياة شعب ما لا تنظمها ثقافته فحسب، بل هناك شراكه مع التحديات التي يفرضها الطقس وخصائص المكان والحيوانات والنباتات وغيرها من الموارد الطبيعية والمكان بالنسبة للثقافات الأخرى.

إن المفاهيم المتصلة بالثقافة والتغير الثقافي تزود المؤرخ بخلاصة العلاقات البشرية وطبيعة الثقافات الإنسانية قبل التاريخ، بالإضافة إلى تحليلها سواءً كانت شفوية أو مدونة .

إن علماء الإنسان قد جرو من زمن طويل على الاعتراف بأن هناك طقوسًا ذات صبغة عامة كإقامة الجنائز وشعائر الموت .ومن هنا نشأت اللغات وتطورت الفنون عند الشعوب فإن المستفيد من ذلك هو المؤرخ عندما يبين حقيقة وأسرار الماضي ويتوصل إلى مؤشرات تاريخية من خلالها يستطيع أن يفسر كثير من العلاقات البشرية في الوقت الحاضر.

إن التاريخ هو وعاء الخبرة البشرية، وهو العلم الخاص بالجهود البشرية أو محاولة الحصول على إجابات عن أسئلة تتعلق بجهود البشرية في الزمن الماضي وفيها نتعرف على جهود المستقبل، وبدون شك فإن التاريخ يصبح علمًا له أصوله.

2. علم الاجتماع:

هناك علوم انفصلت عن علم التاريخ، وعلوم أخرى اعتمدت على نفسها وسارت في طريقها مثل علم الاجتماع؛ والذي يدرس المجتمع وبنائه ووظائفه وعملياته ويركز على الأفعال والعلاقات الإنسانية.

في الحقيقة،إن البحث التاريخي يعنى بالتغير الاجتماعي، وعلى ذلك فإنه يشمل ميدان علم الاجتماع حسبما يتضح في المنظور الزمني الذي يتخصص فيه الباحث. إن هناك قصور في المواد التاريخية التي يعود إليها المؤرخ وتتبعه لبعض مظاهر التغير الاجتماعي؛ مثل التغير السياسي والديني والعسكري. مما جعل اهتمام المؤرخين يتحول عن الإطارات الاجتماعية للمجتمعات القديمة، هذا من جهة. ومن جهة أخرى فإن أغلب علماء الاجتماع ركزوا اهتمامهم الأكبر نحو دراسة الأنماط والمعايير التي يهيئها التفاعل الاجتماعي في مجتمعاتهم الحالية.

إن المؤرخين قد يكتسبون أفكارًا ومدركات جديدة عن طريق دراسة ماكتبه علماء النفس وعلماء الاجتماع عن الأسرة والجماعة، فلكل مجتمع من المجتمعات آماله المرجوة ومثله العليا التي توجه أفراده ليعملوا بموجبها، وهذه المعايير الاجتماعية يجب على المؤرخ أن يكون ملمًا وعارفًا بها.

إن من الأمور التي يولي لها المؤرخون وعلماء الاجتماع الاهتمام دراسة (الطبقات الاجتماعية)، والتي يمكن تعريفها بأنها تجمعات أفراد ليس لهم غالبًا أي مميزات فارقة أصيلة.

ومن المواضيع التي على المؤرخ دراستها دور الوظيفة الاجتماعية، بحيث تشمل هذه الدراسة مختلف الأدوار التي يؤديها الأفراد حين القيام بتلك الوظيفة ، كما أن دراسة الانتقال في المجتمعات الصناعية المتقدمة من مرحلة العرف والعادات والتقاليد الشعبية إلى العادات والتقاليد والأعراف المدنية، توفر للمؤرخين وعلماء الاجتماع فرصة ممتازة للتعاون.فيسهم فيتوسيع مجال الفكر والبحث عند المؤرخين، بل ويساعدهم في عملية تحليل محتوي البحث ومضمونه.

إن هناك كثير من الوشائج والصلات بين كل من علمي الاجتماع والتاريخ، فعلم الاجتماع بفروعه المختلفة يساعد المؤرخين في دراسة وتحليل وفهم الأحداث التاريخية التي لا يمكن أن تحدث إلا في مجتمع أو وحدة اجتماعية وتتأثر بالأوضاع السائدة فيه.

3. علم السكان:

من العلوم التي ينبغي على المؤرخين الاعتناء بدراستها علم السكان؛ والذي يهتم بدراسة أحوال الشعوب وتكوينها وتوزيعها الجغرافي والمتغيرات التي تحدث فيها؛ مثل:نسبة المواليد والوفيات والهجرات .... إلخ. وغالبًا ما تستخدم بيانات ومعلومات هذا العلم من المصادر الرسمية، إما عن طريق قوائم الإحصاءات السكانية والتي يتم إجراءها في أوقات محددة، أو عن طريقة السجلات الرسمية، مثل: سجلات الزواج وسجلات الوفاة والولادة، وسجلات الهجرة إلى داخل البلاد وخارجها. فعلى الباحث أن يدرس العلاقة القائمة بين السكان والعوامل الأخرى المؤثرة في الدوافع الإنسانية المحركة للأحداث التاريخية.

إن علم السكان له صلات وثيقة مع العلوم الاجتماعية وخاصة علم التاريخ، وهذا يعود إلى توسعهفي دراسات علم السكان وتفسيراته في هذا المجال واستعماله لبعض المفاهيم والمفردات.

4. علم الجغرافيا:

لا يخفى على دراسي التاريخ أهمية دراسة الجغرافيا عامة؛ وجغرافية الإقليم المطروح للدراسة خاصة. وذلك لأن الجغرافيا –كما يقول الدكتور جمال حمدان – " قد تكون صماء، ولكن ما أكثر ما كان التاريخ لسانها، فالتاريخ ظل الإنسان على الأرض كما أن الجغرافيا ظل الأرض على الزمان. فالتاريخ –كما عبر البعض – ما هو إلا جغرافية متحركة، بينما الجغرافيا تاريخ توقف.

فلا يتصور – مطلقًا- فهم الإنسان، بدون دراسة البيئة الجغرافية التي نشأ وتربى فيها، إذ لا يخفى – على أحدٍ – أن أثر البيئة كبير على الإنسان، أو كما يقول الأستاذ "هنري برHenry Berr "المشرف على صدور الموسوعة التاريخية الكبرى " تطور الإنسانية" في تقديمه للمجلد الرابع منها، وعنوانه: "الأرض والتطور البشري"، يقول: " لا ريب أن أثر البيئة قوى جدًا على الإنسان؛ فالجفاف، والرطوبة، والرياح، والضوء، والحرارة بل وكهرباء الجو تستطيع أن تُعدل من صفات الكائن الحي تعديلاً دائمًا أو مؤقتًا. سواء كان هذا الكائن حيوانًا أو نباتًا. إن البيئة – بلا شك – تركت أثرها القوي في تكوين الإنسان خَلْقًا وتفننًا.

لا شك ـ إذًا ـ أن هناك علاقة وثيقة بين التاريخ والجغرافيا، فالأرض هي المسرح الذي وقعت عليه الحوادث التاريخية، فبدون الأرض لا يمكن أن تقع الحادثة.

إن طبيعة الأرض ومصادرها وبما تتميز به من صفات، أثرت تأثير كبيرًا في بيئة الإنسان ووجهت ظروفه وحددت ملامح تفكيره .بل إن الظواهر الجغرافية من سهول وجبال وصحاري وأنهار وبحار والثروات الطبيعية والموقع الجغرافي كلها تؤثر في تكوين الإنسان الفسيولوجي والنفسي ونظمه السياسية والاجتماعية والاقتصادية،بل في سير معاركه وفي حربه وسلامه.

هذا، وقد لعب الموقع الجغرافي الاستراتيجي لبعض الدول دورًا كبيرًا في تحركها نحو الحضارة والتجارة والتوسع وبناء الإمبراطورية. كما أن الطبيعة الجغرافيةتتدخل أحيانًا تدخلًا حاسمًا في تغير مجرى الأحداث التاريخية.

يضاف إلى ذلك،أن المناخ له دور كبير في حركةالإنسان وتقدمه الحضاري، فعندما يكون المناخ مناسبًا للحياة يكون الاحتكاك الاجتماعي أسرع. فعادةً ما تنشأ الحضارات من الاحتكاك المتمثل في البيع والشراء، بل إن المناخ يتدخل أحيانًا في تغيير مجرى بعض الحوادث التاريخية.

يضاف إلى ذلك، أن للثروة الطبيعية أثرها الكبير في التاريخ، فغالبًا ما تنشأ الحضارات في السهول والوديان حيث المراعي والمزارع؛فوجود نهري دجلة والفرات في العراق مكّن الإنسان منذ القدم من الزراعة والاستقرار وبناء

الحضارة. فالدولة الغنية بهذه الموارد الأولية إذا كانت قوية فإنهاتستغل هذه المصادر لتزيد من قوتها. وأما إذا كانت الدولة فقيرة ومتخلفة فإن وجود هذه الموارد الطبيعية على أرضها يكون سببًا رئيسًا للطمع فيها وغزوها.

فالجغرافيا ضرورية لدارسي التاريخ، ودورها مهم في فهم الأحداث التاريخية، فعلى الباحث في التاريخ ـ إذًا ـ أن يتعرف على الأحوال والعوامل الجغرافية المختلفة التي تحيط بالشعب أو بالعصر أو بالناحية التي يدرسها على النحو الذي يزيد من إمكانيته في البحث والدرس والفهم.

5. علم الاقتصاد:

هو العلم الذي يعنى بدراسة نشاط الإنسان الاقتصادي وأنظمة الإنتاج التي عرفت عبر التاريخ، وهو يعتبر أحد العلوم المهمة المساعدة على دراسة التاريخ وفهمه بشكل صحيح. وذلك لأن العوامل الاقتصادية ذات أثر فعال على مسار التاريخ الإنساني.

إن الوضع السياسي في أي دولة ـ عادة ـ ما يتأثر بالوضع الاقتصادي، فطريقة توزيع الثروات الاقتصادية، سواء المادية أو النقدية، على طبقة أو فئات من المجتمع له تأثيره على السياسة الداخلية، ويحدد علاقة هذه الطبقات والفئات مع بعضها البعض، ويفصح عن نظام الحكم ومستوى المعيشة، وفي مدى التقدم الحضاري الذي يحصل.فالدولة القوية اقتصاديًا ـ عادة ـ ما يكون النظام السياسي فيها مستقر والعمران والرخاء مزدهر. كما أن الوضع الاقتصادي له تأثيره في علاقات الدول الخارجية، سواءً العلاقات الاقتصادية أو العسكرية أو السياسية.

والجدير بالذكر،أن هناك ثلاثة ميادين مهمة من ميادين البحث الاقتصادي تهم المؤرخ، وهي: تحليل دورة العمل، والتقدم الاقتصادي، وتنظيم العمل.

يتضح لنا مما سبق ذكره، أهمية العوامل الاقتصادية في حدوث التغييرات التاريخية، وعقم أي محاولة لتفسير الحوادث التاريخية دون النظر إلى دراسة علم الاقتصاد دراسة مهمة.

6. العلوم السياسية :

ما زالت الأحداث السياسية تشكل ملامح التاريخ العام وتلقي الجانب الأكثر من اهتمام من أغلب المؤرخين. إن علم السياسية يهتم في المقام الأول بتكوين الجماعة السياسية المؤثرة، وعلى العوامل التي تقف خلف صناعة القرار وطريق الحكم والسلطة ووضع الدساتير والعقوبات التي تصدرها الحكومات ضد المخالفين لأنظمتها.

ومن أهم اهتمامات علماء السياسة ـ أيضًا الاهتمام بالعوامل الحاسمة في رسم السياسة العامة للدولة وتنفيذها . ويعنون كذلك بنظم الحكم المقارن، والعوامل الاجتماعية التي تحرك القرارات السياسية وأصولها التاريخية وتحولاتها، والاهتمام بالنظام الذي ينسق المعتقدات السياسية، وهو ما يعرف " بالأيديولوجية " والتي تنبع من الفلسفة السياسية والقانونية.فعلى المؤرخ الاهتمام بهذا الجانب لارتباطه بالقرارات السياسية والتي هي بدورها تصبح أحداثها تاريخية. ومن خلال ذلك ممكن معرفة كيف تسير الدولة وكيف تعمل مؤسساتها التشريعية والقضائية، كما أن على المؤرخ المقارنة بينها وبين مؤسسات مشابهة أو مختلفة في بلاد أخرى، ليحقق المؤرخ أهدافه من الكتابة.

ومن أهم الجوانب التي يعني بها علم السياسية؛ العلاقات الدولية التي تعرف بالدبلوماسية. ويعتبر هذا الجانب في غاية الأهمية للمؤرخين؛ وذلك لأن العلاقات بين الدول والمعاهدات والاتفاقيات التي تعقدبينها تشكل اتجاه السياسية العالمية، وقيام التحالفات العسكرية والقومية بين الدول، وكذلك قيام الحروب، وعقد المعاهدات. كل ذلك منبعه من علم السياسية من جهة، ومن جهة أخرى فهو المصدر الأول للمعلومات بالنسبة للمؤرخ.

ومن ميادين علم السياسية ـ أيضًا ـ تاريخ الفكر السياسي وتطوره وفكرة ظهور الدولة، وهي الوحدة السياسية للمناطق المتحدة. وهذا المجال يهم المؤرخ بل يعتبر من صميم عمله، فالتاريخ يبدأ من نشوء المجتمع الذي نسميه الدولة.

إن كل ما يضعه علماء السياسية في الوقت الحاضر، أو تاريخ السياسية في الماضي من شروحات وتحليلات بين يدي المؤرخين، سوف تكون أداة مفيدة ونافعة تساعد المؤرخ على الإبداع في كتاباته ومؤلفاته التاريخية.

7. علم النفس:

يعتبر علم النفس من أهم العلوم التي يجب على المؤرخ معرفتها والإحاطة بها، وتأتي هذه الأهمية من أن معرفة نفسية الحاكم أو الزعيم وكل مايتعلق بها من عقد ورواسب تكون سببًا في حدوث تغير في مصائر الأمم والشعوب.

ولكي يفهم المؤرخ تاريخ العلوم في بلد معين لابد من دراسة السيكولوجيات الاجتماعية، فبدونها من الصعب فهم التطور المادي في المجتمع. ونعني بالسيكولوجيات الاجتماعية هي العواطف والأفكار إلى تسيطر في زمن ما على طبقة اجتماعية معينة في بلد معين. إن دراسة السيكولوجيات الاجتماعية تساعد المؤرخ على أمرين في غاية الأهمية بالنسبة للبحث التاريخي: أولهما: تشخيص الحقائق التاريخية، وثانيهما: وضع تفسير ومبادئ لتفسير هذه الحقائق.

إن المؤرخ الذي لا يدرك أهمية علم النفس في دراسته لا يستطيع تحليل الوقائع التاريخية التي تنشأ بسبب هذه الأمراض النفسية تحليلًا سليمًا وسيشكل عليه الأمر ولا تستقيم له الأحكام.

8. الأدب والفنون:

يعتبر الأدب أحد العلوم المساندة للمؤرخ، حيث أن الأدب هو مرآة لحياة الشعوب، ومن خلاله يعبر الأدباء عن كل مايجول في أفكارهم وأحاسيسهم ومشاعرهم وتفاعلهم مع الأحداث. كما إن الأدب يصور ما بداخل الناس من أحلام وأماني، ويرسم طبيعة الحياة في المدينة أو في الريف أو في الاقتصاد أو في الحرب والسلام.

إن الأدب له أهمية كبرى في دراسة التاريخ، وذلك لاحتوائه على كثير من المعلومات التي قد لا توجد في بعض المصادر التاريخية الأخرى.ففي تراث الشعوب وحضاراتهم القديمة نجد أعمالاً أدبية تذكر حوادث تاريخية متعددة، تصور حياة البشر من نواحي مختلفة. وبالتالي قد تكون مصدر من مصادر التاريخ التي يُعتمد عليها.

كما توجد في التاريخ العربي أعمال أدبية تساعد المؤرخين على معرفة التاريخ العربي وأهم الأحداث التي وقعت فيه، لذا فقد قيل: إن الشعر الجاهلي ''ديوان العرب''.فمن خلال هذا الشعر يمكننا أن نتعرف على كثير من النواحي الاجتماعية والنفسية عند العرب في العصر الجاهلي.

إن علم الأدب يقدم خدمات كبيرة للمؤرخين بما يحتوي من معلومات تاريخية متنوعة في كل المجالات، فدراسة الأدب توسع عقل الإنسان وآفاقه وتجعله أقدر على الفهم والاستيعاب من غيره.

أما عن الفنون، فإن معرفة المؤرخ بالفنون المتنوعة من رسم وتصوير ونحت وعمارة، تساعده على فهم تاريخ العصر المراد دراسته.فمن خلال دراسة هذه الفنون يستطيع التعرف على كثير من المناطق التي وجد فيها الإنسان، كما أنها تبين لنا كثيرًا من خفايا حياة الإنسانمن حيث العادات والتقاليد والأخلاق ..

مما سبق يتضح لنا ، أن الفنون بشتى أشكالها تخدم سائر الدراسات الإنسانية والعلمية والتي يأتي في مقدمتهاعلم التاريخ، كما أن دراسة شيء من هذه الفنون تساعد على فهم هذا العصر ومن ثم براعة الكتابة عنه.

ثانيًا: علوم الآثار والتراث:

علم الآثار أو الأركيولوجيا (Archeology) : هي فرع من فروع علم الإنسان الذي يركز على المجتمعات والثقافات البشرية الماضية وليس الحاضرة . وتدرس تحديدًا المصنوعات الحرفية كالأدوات والأبنية والأوعية ... وما بقي منها، والتي استمرت بالتواجد للوقت الحاضر. كما يدرس أيضًا الحفريات الإنسانية والبيئات الماضية لكي يُفهَم مدى تأثير القوى الطبيعية كـ''المناخ والطعام المتواجد'' ـ على سبيل المثال ـ على تشكيل الثقافة الإنسانية.

هذا، وقد تعددت علوم الأركيولوجيا فأصبح لها أهمية كبيرة في دراسة علم التاريخ ، ويأتي في مقدمة هذه العلوم:

1. علم المسكوكات(النميات)

هو العلم الذي يهتم بدراسة النقود والمسكوكات وتطورها عبر العصور. فالمسكوكات تعتبر أحد أهم مصادر دراسة التاريخ المهمة. فالعملة المسكوكة والأنواط بما تحمل من رموز وصور الآلهة وصور الملوك والأمراء وأسمائهم وتاريخ ضربها وذكرى الحوادث التاريخية ونوعية المعادن المسكوكة فيه، تقدم للمؤرخين معلومات تاريخية قيمة عن مختلف نواحي الحياة قديماً.

إن المسكوكات (النقود) القديمة مرآة الاقتصاد في عصرها التي ظهرت فيه، لأن الغرض من سك النقود هو تسهيل النشاط التجاري حيث كان التعامل قبل ظهور النقود بقطع المعادن الثمينة، مثل: الذهب والفضة. ونظرًا لشدة التنافس على الحركة التجارية بين المدن تدخلت حكومة الدويلات ووضعوا أختامهم عليها لضمان نقاوة معادنها ووزنها.

"إن دراسة العملة علم وفن وتاريخ، علم لأن لها أصول وقواعد، وفن لأن العملة مجال دراسة فنية وتصويرية، وتاريخية لأنه يسهل تصنيفها زمنيًا وحسب الأماكن التي ضربت فيها، فضلاً عن النقوش والتواريخ التي تحملها العملة. ولهذا ساهم علم دراسة النقود مساهمة كبيرة في إثراء المعرفة التاريخية ببلدان العالم القديم والحديث، خاصة عندما تصمت الوثائق أو تعجز عن التعبير أو تكون نادرة.

2. الأختام و الرنوك:

تتصل الأختام بدراسة الوثائق، وهي التي تمهر بها الوثائق المتعلقة بالمكاتبات الرسمية للحكام أو الملوك. وقد استخدم الإنسان الأختام منذ أقدم العصور كوسيلة لإثبات الملكية، أو لتأكيد صحة قرار أو اتفاق أو معاهدة وخاصة من قِبل الملوك والحكام.

هذا، وتتميز الأختام بأشكالها وأنوعها المختلفة، ومن ذلك أختام الشمع الذي شاع استخدامه منذ أزمان بعيدة ولايزال يستخدم في بعض المناطق إلى عصرنا الحالي. كما وجدت أختام من الرصاص استخدمت من قِبل الأمراء والملوك خاصة في أزمنة مختلفة، ووجدت أختام من الذهب في العصور الوسطى واستخدمت عند بعض الأسر الحاكمة إلى زمن قريب.

ومن أشكال الأختام: المستدير، والبيضوي، والمثلث، والقلب، والصليب. وبالتالي، فإن معرفة أنواع الأختام وأشكالها والمواد المصنوعة منها تفيد الباحث بالتاريخ في التثبت من صحة الوثائق التي يقوم بدراستها.

ومن الجدير بالذكر،أن المسلمون والعرب عرفوا الأختام منذ القدم، واعتبر ابن خلدون " الخاتم من الخطط السلطانية والوظائف الملوكية" كما ذكر في كتابه أنه ثبت في الصحيحين أن الرسول (ﷺ)عندما أراد أن يكتب إلى قيصر الروم، فقيل له: إن العجم لا يقبلون كتابًا إلا أن يكون مختومًا، فأخذ خاتمًا من فضة وكتب عليه "محمد رسول الله" في ثلاثة أسطر، بحيث كل كلمة في سطر.

ومما سبق يتضح لنا أن دراسة الأختام شيء ضروري وهام لدراسة تاريخ فترة زمنية معينة، من حيث المادة المصنوعة منها وطريقة صنعه ومن خلال ما يمكن استنتاجه من معلومات من الرسوم والكتابات المنقوشة عليه.

أما الرنوك، فهي: إحدى العلوم المساعدة في دراسة التاريخ، والمقصود بهاالعلامات المميزة الخاصة بالملوك، أو الأمراء أو الأُسر والجماعات أو الأفراد التي تظهر على الأختام أو الدروع أو السيوف أو على ملابس العساكر والنبلاء أو على الأعلام لتمييزهم عن غيرهم والدلالة عليهم.

ولقد عرفت هذه الرنوك أو العلامات منذ القدم وحتى العصور الوسطى سواءً في أوروبا في الغرب أو عند المسلمين في الشرق. ومن أهم هذه العلامات؛ الكأس والسيف والدواة والنسر والهلال وذيل الحصان والصليب. ثم صار للنبلاء والوزراء والقادة ورجال الكنيسة وطوائف الرهبان وكبار الموظفين رموزًا خاصة بهم.

إن معرفة المؤرخ بالرنوك والعلامات الخاصة بكل جماعة أو سلطة أو فرد، تجعله قادرًا على إثبات صحة ما يجد من دروع أو أسلحة أو وثائق قديمة ونسبتها بشكل صحيح للعصر الذي تنتمي إليه.

3. علم الخطوط القديمة الباليوغرافيا.

فكما أن لكل عصر لهجته المتميزة فإن لكل عصر خط يتميز به وتُكتب بها لغته، ويتطور هذا الخط عبر الزمان. وبناءً على ذلك، فإن علم الخطوط القديمة يدرس نشأة الخط الذي تكتب به لغة ما وتطورها ورموزها والتغيرات التي طرأت عليها والأدوات التي استعملت فيها.

إن هناك أنواع مختلفة من الخطوط القديمة تبقى كالطلاسم حتى يتعلمها الباحث ويتدرب على قراءتها. وقد ظهرت أهمية هذا العلم بعد أن استطاع الباحث الفرنسي (شامبليون) من حل أصول اللغة الهيروغليفية القديمة وذلك في عام 1798م، وأثبت أن ما نقشه قدماء المصريين على آثارهم لم تكن للزينة بل هي كتابة للغتهم التي احتوت على أحداث تاريخهم وأهم أعمالهم.

بناءً على ما تقدم يمكن القول، أن هناك ضرورة لدراسة هذه الخطوط حتى تحفظ للمؤرخ الوقت وتجنبه الوقوع في كثير من الأخطاء ويتمكن من الوصول للفهم الصحيح للوثيقة أو للنص الذي يدرسه.

4. علم الوثائق.

يعتبر علم الوثائق من أهم العلوم الأساسية لدراسة التاريخ، وهي: تدل بمعناها العام على كل الأصول التي تحتوي على معلومات تاريخية سواء دُوِّنَ على الورق أو على غيره. أما معناها الذي اصطلح عليه الباحثون في التاريخ، فهي:" الكتابات الرسمية- أو شبه الرسمية – مثل: الأوامر والقرارات والمعاهدات والاتفاقيات والمراسلات السياسية والكتابات التي تتناول مسائل الاقتصاد أو التجارة ، أو عادات الشعوب ، أو نظمهم وتقاليدهم وما يصيبهم من قوة أو ضعف، أو المشروعات أو المقترحات المتنوعة التي تصدر عن المسؤولين في الدولة أو التي تقدم إليهم ، أو المذكرات الشخصية.

فينبغي على الباحث في التاريخ أن يتعلم المصطلحات الخاصة بالوثيقة ، وأن يعرف نوع الحبر المستعمل في الكتابة والأقلام التي كتب بها وأنواع الورق المستعمل وخصائصه ، وأن يتأكد من صحة الوثيقة من خلال وصفها وتحديد تاريخها ومصدرها وعصرها ومؤلفها ، فإذا تأكد من كل ذلك تكون الوثيقة جاهزة من قِبل المؤرخ.

إن الوثيقة هي مصدر رئيسي يعتمد عليها المؤرخ في دراسته. فمعرفة مصطلحات الوثيقة وكيفية التعامل معها هي الطريقة التي تعين الباحث على الاطلاع على أسرارها، كما يتطلب من الباحث معرفة لغة الوثيقة والخط الذي كتبت به ، وأسلوب الإنشاء الذي كان سائدًا في عصر تدوين الوثيقة والافتتاحات التي كانت تفتتح بها والخواتيم التي كانت تنتهي بها.

كل هذه الأمور ضرورية لدراسة الوثيقة التي تم اكتشافها في أماكن مختلفة وبأشكال متعددة طوال عصور التاريخ. ومن هذه الوثائق ما وصل إلينا بحالة جيدة والآخر في حالة سيئة، ويرجع ذلك إلى أسلوب حفظ الوثيقة والمكان الذي وجدت فيه.

ومن الجدير بالذكر أن الوثائق تنقسم ـ عادة ـ إلى وثائق أدبية ووثائق سياسية أو خطابات خاصة؛ وهي التي تتناول أحوال الناس وأوضاعهم الدينية والاجتماعية والاقتصادية. كما أن هذه الخطابات تتميز بالصدق والحيوية ، لأن مصدرها عامة الناس البسطاء.

5. علم الآثار:

هو علم يعنى بدراسة آثار الإنسان ومخلفاته من بيوت وقصور عاش فيها والقبور التي حوت رفاته والمعابد التي تعبد فيها والمنحوتات والأدوات المختلفة الحجرية والمعدنية والفخارية وكل ما يتعلق بحياة الإنسان ونشاطاته في الماضي بكافة عصوره وفتراته الزمنية.

إن الإنسان له تاريخ طويل يمتد إلى ماقبل اختراع الكتابة ودراسة ما قبل ذلك يعتمد على ما يقدمه له دراسة آثار الإنسان المادية التي خلفها في المواقع والأماكن التي استوطنها أو أقام فيها منذ بداية ظهور الإنسان على الأرض .هذا، وتتميز الآثار بأصالتها ومعاصرتها للحدث كما أنها غير قابلة للتحريف بعكس الوثائق المكتوبة فهي توضح كثير من جوانب الحضارات، مثل: الأحوال الاجتماعية والاقتصادية. وهناك كثير من المناطق والعصور يعتمد في التأريخ لها على الآثار أكثر من غيرها.

ورغم أن البحث عن الآثار قديم جدًا إلا أنه كعلم يعتبر تطورًا حديثًا قد لا يزيد عن مائة عام إلا قليلًا، مع ذلك فقد توصلنا معه إلى نتائج مبهرة. فينبغي على المؤرخ أن يشاهد بنفسه آثار العصر الذي يكتب فيه، وأن يقارن بينها وبين غيرها ويزور الأماكن التي اكتشف فيها الآثار ليستنبط ويستخرج منها بعض أحكامه التاريخية. كما عليه أن يبحث عن متعلقات أخرى لتعم الفائدة ولا سيما المخلفات الشخصية ، التي تعين وتساعد المؤرخين.

إن علم الآثار يقدم خدمات مفيدة جدًا لعلم التاريخ من خلال الكشف والبحث عن أثار الماضي ودراستها وتحليلها، كما أن الآثار المادية تقدم معلومات قد تعجز عنها الوثائق المكتوبة.

6. علم اللغات:

علم اللغات من أهم العلوم المساعدة التي لابد للباحث في التاريخ أن يتزود بها. فينبغى على المؤرخ من معرفة اللغةالأصليةالمتعلقة بالموضوع التاريخي الذي يرغب الكتابة والبحث عنه . لأن الترجمات ـ وإن وجدت ـ غير كافيه لتحصيل الثقافةالعامة ، كما أنها غير قادرة على تلبية حاجات البحث ، إضافة إلى إمكانية كونها محرفةأو غير دقيقه.

وكلما كان الباحث مُلمًا بعدد من اللغات الأصلية القديمة أو الحديثة ، اتسع أمامه أفق البحث والاستقصاء ويصبح أكثر قدرة على التعامل مع الموضوع بشكل صحيح واستخراج نتائج منطقيه. وحتى يكون الباحث في التاريخ على اطلاع دائم بالأبحاث العالمية المتجددة التي تتعلق بمجال بحثه فينبغي عليه أن يلم بلغة أو أكثر من اللغات الأوروبية الحديثة كالإنجليزية والفرنسية والألمانية . وقد يرى الباحث أن تعلم اللغات – القديمةأو الحديثة – أمرًا صعبًا ولكن برغبة الباحث وجديته في تعلم هذه اللغة والصبر على ذلك تزيل هذه المصاعب.

مما سبق يمكن القول، إن على الباحث أن يكون حريصًا على دراسة ما يلزمه من اللغات سواء كانت صعبة أو قديمة أو نادرة حتى يستطيع الرجوع إلى الأصول والمصادر التاريخية الأولى. وبدون ذلك لا يمكنه السير قدمًا في سبيل البحث التاريخي ، وحتى يستطيع التعبير كما يريد بشكل سليم ودقيق وواضح.

7. فقه اللغة (الفيلولوجيا):

هو: دراسة اللغة عبر الوثائق والنصوص التاريخية وكيفية تطورها وانتقالها عبر الزمان والمكان . كما إنه علم يعنى بدراسة " الكلمات" وتاريخها وتطورها ، وتطور مضمونها ، وكلما بُعد العصر الذي هو موضوع الدراسة والبحث ازدادت الحاجه إلى علم فقه اللغة. إذْ لابد لفهم النصوص التاريخية من معرفة لغة ذلك العصر التاريخي المعين . واللغة عبارة عن كائن حي ينمو ويتغير ويتطور حسب ظروف المكان والزمان وامتزاج الحضارات والثقافات والشعوب. فكلمة ما قد تحمل أكثر من معنى ، وقد تؤدي إلى معنى آخر في مرحله أخرى أو في مكان آخر.

ومما تجدر الإشارة إليه، أن هناك فرق بين علم اللغة وفقه اللغة . فعلم اللغة ندرسه كنشاط إنساني أو وسيله للتعبير ونقل الأفكار ، فهو يبحث في قوانينها وقواعد تطورها . أما فقه اللغة فهو يدرس اللغة باعتبارها وسيلة إلى غاية ، وهي دراسة الثقافة بما تشتمل عليه من عادات وتقاليد وديانات وآداب ، فإن الغاية لفقه اللغة هي دراسة الحضارة.

إن فقه اللغة علم أساسي يساعد الباحث في دراسة التاريخ لفهم مضامين النصوص فهمًادقيقًا ، وإخضاعها للنقد والتثبت من صحتها ، وحتى لا يفسر ما يقرأ على غير الحقيقة المراد منها.

8. علم النقوش:

هو: العلم الذي يدرس الكتابات المنقوشة والمنحوتة على الأحجار والمعادن وعلى الأواني الفخارية أو التوابيت على اختلاف أغراضها، فمنها التذكارية أو الدينية أو شواهد القبور أو الكتابات الملكية.

إن لكل حضارة ـ ولكل شعب ـ نقوشها الكتابية الخاصة بها ،فمثلًا، هناك نقوش ثمودية ، ونقوش سبئية، ونقوش حميرية ، ونقوش أرمينية، ونقوش فينيقية، وغيرها. وبفضل اكتشافات الأثريين المتزايدة للنقوش فإنها تعتبر مصدرًا مهمًا تعطي المؤرخين الحيوية والتجديد وبدونها تتجمد المعلومات. ولهذا ستظل النقوش تقدم للمؤرخين المصدر والمادة.

يقول الأستاذ وودهيد في كلامه عن النقوش " :إن المؤرخ عن طريق إلمامه ليس بالنقوش فحسب ، بل بسائرالعلوم المساعدة الضرورية ،تصبح مهمته أشبه بمهمة القائد الأعلى للجيوش في الميدان الذي يحرك فروع القوات المختلفة لصالح المعركة ، ولا يشترط أن يكون دقيق الإلمام والخبرة بطبيعة عمل كل فرع ولا يتدخل فيه تدخلًا دقيقًا.

نستنتج من هذا القول،أنه لا يجب على المؤرخ أن يصبح عالمًا في النقوش ، بل يكفي معرفته بقراءة النقش وتحليله وكيفية استخدامه . وكلما كان المؤرخ ملمًا بنقوش لغة العصر الذي يدرس فيه كلما كان أقرب إلى المعرفة الأصلية.

إن علم النقوش يحتوي على آلاف القرارات والمعاهدات القديمة التي تم نقشها على الحجر ، وبعض من هذه القرارات ترتب عليها تطورات مهمة حدثت من آلاف السنين ، وهذا يعطي النقوش أصالتها وأهميتها، وبالتالي سيقرأها المؤرخ مباشرة وكأنه يعيش العصر الذي كُتبِت فيه.

وتسهيلا للبحث العلمي فقد لجأت الجامعات والأكاديميات إلى جمع النقوش المتفرقة في مجلدات منظمة، حتى توفر على الباحث مشقة السفر والبحث عن هذه النقوش.

هذه ـ إذًا ـ أهم العلوم المساعدة لدراسة علم التاريخ، فعلى الباحث أن يجتهد في تحصيل أكبر قدر ممكن من هذه العلوم حتى يستطيع أن يمضي قُدمًا في مسيرة البحث العلمي، وأن يقدم لأمته وللعالم أجمع مادة علمية جديرة بالبحث والمناقشة، بل إنه من خلال تحصيل هذه العلوم يستطيع أن يترك بصماته العلمية على صفحات التاريخ الإنساني.

خاتمة

أولًا :إن البحث التاريخي، هو: عملية إنتاج وإبداع وخلق وابتكار ، فهو يحتاج إلى موهبة، وليس بمقدور كل إنسان القيام بها.فينبغي أن يعلم الباحث أن التفوق الدراسي لا يعني التأهيل لهذا العمل. بل قد يكون عكس ذلك. وإذا وجدت الموهبة عند باحث ما فيجب عليه استغلالها وتنميتها والوصول بها إلى المستوى المطلوب والاستفادة منها . إن حب الاستطلاع والرغبة المستمرة في البحث والتقصي، لهو المفتاح الحقيقي لهذا العمل التاريخي الذي لا يتصور الدخول فيه بدونه، ولذا يجب على الباحث أن يصرف من وقته قدرًا كافيًا للقراءة والاطلاع والفهم والتعمق في موضوعه، وأن يلم بكل ما كُتب في موضوع بحثه وأن يهضمه جيدًا، حتى يتمكن من إصدار نتائج سليمة خالية من التناقض والتعارض.

ثانيًا :إن علم التاريخ فرع من فروع الدراسات الاجتماعية ، علاوة على ارتباطه الوثيق بالعلوم المساعدة الأخرى التي يحرص المؤرخ على الإلمام بها لإكمال الصورة التاريخية قدر الإمكان. فقد تطورت الكتابة التاريخية فلم يعد الأمر يقتصر على مجرد ترديد للقصص أو بسط للوقائع التي كان العالم مسرحًا لها ، لكن أصبح من الضروري على الباحث دراسة العلل المباشرة للأحداث ، ثم بحث العوامل العامة التي كانت ذات أثر في تكوينها زمنًا طويلًا . فحوادث التاريخ لا تقع فجأة لكنها في الحقيقة نتيجة سلسلة طويلة من الوقائع ؛ وإن كانت عللها المباشرة تبدو كأنها هي الأسباب الوحيدة للأحداث . فعلى المؤرخ ـ إذًا ـ أن يبحث عن هذه العلل المتعددة الخفية البعيدة في زمنها عن زمن الأحداث ذاتها .ومنها تأتي أهمية معرفة العلوم المساعدة لدراسة علم التاريخ.

التّكامل بين التّاريخ والعلوم الاجتماعيّة لدى ميشله([1])

يمكن عدّ الكتاب "*الإنسان المؤرخ* .تأملات حول التاريخ، والمؤرخين والعلوم الاجتماعية"، الذي أصدره المؤرخ الفرنسي المعاصر كريستوف شارل (جامعة السوربون، باريس- فرنسا، وأستاذ كرسي التاريخ المقارن للمجتمعات الأوروبية في المعهد الجامعي الفرنسي) مرجعًا مهما لا غنى عنه لكل باحث مهتم بالمعرفة التاريخية المعاصرة وإبستيمولوجيا (نظرية المعرفة) التاريخ الحديث والمعاصر، من منظور المقاربة المقارنة والمتداخلة التخصصات المعتمدة ، ونظرًا إلى دقته المنهجية الإبستيمولوجية التي تعيد تحديد النسق العام للمنهج التاريخي، والهيستوريوغرافيا)"historiographie"علم التاريخ (والتاريخ الاجتماعي والثقافي المعاصر، حيث الكتابة التاريخية محط تفاعل وتكامل بين مختلف العلوم الفاعلة في إنتاج الظاهرة والواقعة التاريخية.

يقع الكتاب في 319 صفحة من الحجم الكبير ويتكون من ثلاثة أقسام تعالج قضايا ورهانات الخروج عن حدود الإنسان المؤرخ "Sortir des limites de l'Homo Historicus" وقضايا المنهج التاريخي وإشكالاته"Méthodes et problèmes" ، فضلًا عن معالجة مسألة جد حساسة ضمن البناء الأكاديمي للمؤرخ المعاصر والمقترنة بالشروط الموضوعية لإنتاج المؤرخ الملتزم نفسه، بين الأمس واليوم، وهنا [الغرب الأوروبي] وهناك [باقي العالم "Historiens engagés : d'hier et d'aujourd'hui, d'ici et d'ailleurs" [من خلال نماذج مختارة لأكثر المؤرخين أهمية، الفاعلين في الساحة الأكاديمية الحديثة والمعاصرة.

يعد "الإنسان المؤرخ" امتدادًا لمسار بحثي [إبستيمولوجي] لشارل حول قضايا المنهج، والهيستوريوغرافيا (علم التاريخ) والتاريخ الاجتماعي والثقافي الحديث والمعاصر في تفاعلها البنيوي مع الشروط الموضوعية لكتابة التاريخ العالمي كما التاريخ المحلي، في إطار البحث عن مخرج أبسيمي من الأزمة البنيوية التي يتخبط فيها التاريخ المعاصر سواء على مستوى المنهج] قضايا الفهم والتفسير] أو على مستوى الموضوع والموضوعية قضايا الالتزام]، فضلًا عن إشكالية الكوني والمحلي في كتابة التاريخ الراهن [ما بعد المعاصر.[

يمكن أن نعد القرن الحادي والعشرين قرن التداخل بين التخصصات بامتياز، حيث إن النقاش الإبستيمولوجي لم يعد قائمًا حول التأسيس لعلم التاريخ الخالص)المنغلق) وللمعرفة الإبستيمولوجية المنغلقة بالماضي الإنساني، بل حتى مقولة "الإنسان المؤرخ" الخالص أضحت محط نقاش وجدل كبيرين. أصبحت الكتابة التاريخية نتاج تفاعل بنيوي بين الثقافات الثلاثة (العلوم الطبيعة، والإنسانيات والعلوم الاجتماعية) من منطلق أن تعدد الخطابات العلمية والإبستيمولوجية سند قوي لتأسيس معرفة تاريخية متداخلة التخصصات تسير في اتجاه

[1] ياسين زينون، "التّكامل بين التّاريخ والعلوم الاجتماعيّة لدى ميشله"، **مؤمنون بلا حدود للدراسة والأبحاث**، 22 غشت 2017.

البحث عن تاريخ كوني يأخذ في الحسبان الخصوصيات المحلية للثقافات والمجتمعات المختلفة، ولا يتأثر بالخطابات السياسية فحسب، في إطار تعدد المعارف والمناهج التاريخية ووحدة التاريخ الإنساني.

ما يميز كتاب ''الإنسان المؤرخ'' أيضًا بحثه عن صورة الالتزام في أعمال مجموعة من المؤرخين الحديثين والمعاصرين، إذ إن المعرفة التاريخية المعاصرة والجديدة قد أضحت نتاج تفاعل بنيوي بين القضايا التاريخية والمسائل الاجتماعية والسياسية، والمؤرخ الملتزم يجد نفسه بالضرورة مسؤولًا عن كتابة التاريخ الكوني أو المحلي آخذًا طبيعة الشروط الموضوعية المنتجة لمسلسل التغيرات السياسية والاجتماعية الدولية في الحسبان، وبالتالي يجعل نفسه مسؤولًا بالضرورة عن القضية الإبستيمولوجية [المنهج والموضوعية] والقضية السوسيو- سياسية [المجتمع والتحولات الإقليمية والدولية'' :[*إن المؤرخ الملتزم هو من يبحث عن جعل المعرفة التاريخية نابعة من المجتمع ونحو المجتمع.''*

كما أشرنا سابقا، يتكون الكتاب من ثلاثة أقسام متكاملة ومتداخلة في ما بينها، تشكل مدخلًا نسقيًّا لمعالجة القضايا الإبستيمولوجية للمعرفة التاريخية، وأزمة الكتابة التاريخية خلال العقود الأخيرة. نجد أن الإرث البورديوي حاضر بقوة في البنية الذهنية للمؤرخ وضمن اختياراته الإبستيمولوجية، إذ إن العنوان نفسه (Homo Historicus) يحيلنا بالضرورة على أحد المؤلفات النقدية الأكثر أهمية لعالم الاجتماع الفرنسي بيير بورديو '' خلال ثمانينيات القرن الماضي.

يتعلق الأمر بكتاب ''الإنسان الأكاديمي .(Homo Academicus) ''يرسم شارل صورة '' إبستيمولوجية'' عامة حول الشروط الموضوعية التي تنتج المؤرخ وتحكم عمله داخل الساحة الأكاديمية، من خلال نماذج مختارة (بدءًا من '' فرديناند برونو ''Ferdinand Brunot '' وصولًا إلى ''سيفان كوليني '' :(''Stefan Collini''مناهجهم، ومساراتهم البحثية ومواقعهم الأكاديمية.

انطلاقًا من تحليل نظام الاستعدادات القبلية الجامعية المحدد للبراديغم النسقي للمؤرخين الأوروبيين المعاصرين (بخاصة الفرنسيين– (لشروط عملهم وتصنيفاتهم العلمية والشبكية- يقدم لنا شارل مقاربتين إبستيمولوجيتين لاختراق الحقل الأكاديمي للمؤرخين: انعكاسية شمولية إزاء خصائص ورهانات ''حرفة '' ''métier''المؤرخ ضمن الوضع المعاصر للعلوم الاجتماعية وتداخل التخصصات من جهة، واستكشاف المناقشات المنهجية، في بعدها الأكثر دقة وحِدّةً من جهة أخرى. يتعلق الأمر بانعكاسية نقدية مستمدة من النسق العام لنظرية ''سوسيولوجيا السوسيولوجيا''، التي دافع عنها بيير بوردو خلال العقود الأخيرة، من أجل تخليص السوسيولوجيا من النزعات الإيديولوجية واللاعلمية وإنتاج الإنسان الأكاديمي الملتزم بالقضية السوسيولوجية.

سبق للمؤرخ كريستوف شارل أن قدم تصورًا نقديًّا حول الشروط الموضوعية لتقويم [المؤرخين] الجامعيين بين خلاله أهمية الفكر النظري وخطاب المنهج في صناعة المثقف الجديد، مستحضرًا نظريات الحقول لبيير بورديو من أجل فهم النسق العام لمهنية الحقل الأكاديمي التاريخي. يتعلق الأمر بمحاولة التأسيس لتاريخ نقدي للمؤرخين أو إبستيمولوجيا المهنة والمهنيين والمؤرخين، يمكن من خلالها الكشف عن مكامن الخلل الإبستيمولوجي على مستوى الخطاب والمنهج ودور المؤرخين في تعزيز وتكريس أزمة المعرفة والكتابة التاريخية: لن تكون هذه المهمة باليسيرة إذا لم تستوف شرطين اثنين

-1العمل على الوعي الإبستيمولوجي بأهمية التداخل بين التخصصات واستثمار المناهج العابرة للتخصصات في إنتاج كتابة تاريخية علمية وملتزمة،

-2ضرورة الانفتاح على السوسيولوجيا كتخصص مجاور ومساعد للتاريخ في الآن نفسه، كونه أحد أكثر العلوم الاجتماعية أهمية والتي استفادت من مختلف المقاربات الإبستيمولوجية لتعزيز مسألة الالتزام.

كما أشرنا سابقًا، فإن هذا المؤلَّف يعكس اختيارًا إبستيمولوجيًّا للمؤرخ يحاول من خلاله البحث في الشروط الإبستيمولوجية والموضوعية لـ ''حرف المؤرخ''، ومناقشة قضايا المنهج والكتابة التاريخية فضلًا عن تكريس ثقافة الاعتراف في الأدبيات العلمية من خلال تدارس مسألة الالتزام في أعمال مجموعة من المؤرخين المؤسسيين. لكن ما يثير الاهتمام أيضًا، هو أن المؤَلَّف في حقيقة الأمر تجميع لمجموعة من المقالات –بخاصة القسم الثاني – التي نشرها الباحث خلال العقدين الماضيين، الأمر الذي يعكس التزامًا موضوعيًّا من طرف الباحث بالانعكاسية النقدية الذاتية كمدخل إبستيمولوجي لمساءلة راهنية المنهج التاريخي تنظيرًا ومراسًا، والبحث عن السبل البنيوية لتعزيز التداخل بين التخصصات من منطلق أن العلم المعاصر لصيق بالضرورة بكونية المعرفة والحق الكوني كما المحلي في العلم. لذلك فحديثه عن الالتزام التاريخي بالقضايا السياسية والاجتماعية من طرف المؤرخين الغربيين المعاصرين، هو دعوة صريحة إلى إنتاج معرفة تاريخية معاصرة بصيغة الجمع تنتصر للحق الإنساني –كما العلمي– لمختلف الجماعات العلمية في دول الجنوب في مناقشة قضايا التداخل المنهجي ومسائل الالتزام في التاريخ المعاصر. لن يتأتى ذلك إلا بالعمل على تعزيز الاهتمام بقضايا ''إبستيمولوجيا التاريخ كمهنة'' ضمن البرامج الاستراتيجية للجماعات العلمية، والجامعات والمراكز البحثية. لذلك وجب تجاوز قضايا السياسي والاجتماعي في إنتاج الكتابة التاريخية والاهتمام أولًا بالشروط الموضوعية لـ ''كاتب التاريخ'' أو مدون التاريخ (المؤرخ) ومنه الانفتاح على التفاعل بين الاجتماعي والثقافي في إنتاج التاريخ الكوني آخذًا في الحسبان الشروط المحلية لإنتاج الوقائع الاجتماعية والثقافية (التفاعل الإبستيمولوجي والحوار النسقي بين التاريخ والعلوم الاجتماعية.(

ارتبطت هذه الدعوة إلى تحديد الحوار بين التاريخ والإبستيمولوجيا من جهة والتاريخ والعلوم الاجتماعية من جهة أخرى، بانعكاسية نقدية ذاتية للمؤرخ إزاء تداخل الاجتماعي والثقافي في كتابة التاريخ المعاصر نابعة من الشرط البنيوي لـ''مهنة المؤرخ'' نفسه، حيث توزعت اهتمامات كريستوف شارل (منذ سبعينيات القرن الماضي) وتعددت في اتجاه التكامل مع العلوم الاجتماعية واستثمار مناهجها وتقنياتها الحديثة (تاريخ النخب؛ تاريخ البورجوازية؛ تاريخ المثقفين والجامعيين؛ تاريخ المجتمعات الامبريالية) الأمر الذي مكنه من الانخراط في السجالات والنقاشات الإبستيمولوجية التي طرحت خلال العقود الثلاثة الأخيرة من موقع الممارس وليس المنظر فحسب.

بالعودة إلى النقاش حول الشروط الموضوعية لعمل المؤرخ ولإنتاج التاريخ كـ ''مهنة''، ضمن الجماعات العلمية، نجد أن انفتاح الباحث على النموذج الفرنسي يعكس بالضرورة إرثًا إبستيمولوجيًا ونقديًا فريدًا من نوعه (مدرسة الحوليات خاصة) يمكن أن نقرأ في ضوئه المدرسة التاريخية الأوروبية الحديثة والمعاصرة، حيث الجدل لا يزال مستمرا بين الكم والكيف، الانغلاق والانفتاح، الوصف والتفسير، العلمية واللاعلمية وأيضًا الأكاديمية والمهنية المؤسساتية.

في مقارنة بين المدرسة التاريخية الأوروبية والمدرسة التاريخية العربية، يمكن أن نعزو اختلاف الشروط البنيوية لكتابة الحدث والواقعة التاريخية، فضلًا عن إنتاج علم التاريخ نفسه، إلى غياب الإشكال الإبستيمولوجي ضمن مجال اهتمام المؤرخين العرب: ليس هناك وعي إبستيمولوجي لدى ''الجماعة العلمية'' بضرورة الالتزام بالنسق الانعكاسي في التعاطي مع البحوث والدراسات التاريخية. طبعًا لا يمكن أن نتحدث هنا عن منطق تفاضلي في ما يتعلق بالتقنيات والمناهج أو حتى التيمات الموضوعاتية، لكن غياب مواكبة نقدية وإبستيمولوجية من طرف الجماعات العلمية المختصة للإنتاجات العلمية التاريخية وضعف الانعكاسية النقدية لدى المؤرخين والباحثين (إبستيمولوجيا التاريخ والمؤرخ)، لن يؤدي بالضرورة إلى تأسيس علم تاريخ ملتزم في الوطن العربي، و الأمر نفسه بالنسبة للتخصصات الاجتماعية الأخرى، وتلك هي الفكرة الأساسية التي يؤكدها كريستوف شارل، حيث إن ما يميز تاريخ التاريخ الفرنسي [والأوربي عامة] هو الاهتمام بإبستيمولوجيا كتابة التاريخ أكثر من كتابة التاريخ نفسه، حيث تزاوج علم التاريخ بالإبستيمولوجيا والعلوم الاجتماعية بالشكل الذي عزز، خلال العقود الأخيرة، تنمية التاريخ كـ''مهنة.''

إن الدعوة إلى تحديد الحوار الإبستيمولوجي بين التاريخ والعلوم الاجتماعية ليست بالمقولة المستجدة، حيث إن الرواد المؤسسين للسوسيولوجيا والأنثروبولوجيا دائمًا ما عدّوا التاريخ مختبرًا حقيقيًا للعلوم الاجتماعية، أي إن عالم الاجتماعي أو الأنثروبولوجي ــ في سياق بحثه عن القوانين المتحكمة في إنتاج الواقعة الاجتماعية أو الثقافية ــ يساهم في كتابة التاريخ نفسه ويزود المؤرخ بالتقنيات والمناهج التي أثبتت فعاليتها في بناء التصور العلمي عن الظاهرة الاجتماعية.

اليوم، أصبحت السوسيولوجيا مرجعًا لا غنى عنه لأي مؤرخ ملتزم، خاصة في ما يتعلق بالجانب الإبستيمولوجي والانعكاسي، في إطار البحث عن الميكانيزمات الفعالة لمهنة التاريخ كحرفة (في إطار إبستيمولوجي وانعكاسي) والمؤرخ كفاعل ملتزم برهانات المسألة التاريخية كما القضايا الاجتماعية والثقافية والسياسية.

أضحت قضية الالتزام رهانًا أساسيًّا في حقل العلوم الاجتماعية المعاصرة، من منطلق أن المعرفة الموضوعية ليست بالضرورة نتاج تفاعل بين الباحث وموضوع البحث بقدر ما هي إنتاج إنساني محدد بشروط سوسيو-ثقافية وسياسية خاصة تجعل من العلم تعبيرًا عن تبلور الإنسان في الوجود. لذلك لم تعد المعرفة المتعالية والمنتجة ''حول'' المجتمع أساس بناء الحقيقة الاجتماعية، بل إن تعزيز مقاربات وبراديغمات معرفية تهدف إلى جعل المعرفة نابعة ''من'' المجتمع و''نحو'' المجتمع هو رهان العلم الراهن.

ينخرط كريستوف شارل بدوره في هذا النقاش من خلال البحث في قضايا الالتزام ضمن فكر مجموعة من أبرز المؤرخين الحديثين والمعاصرين: يتعلق الأمر بـ '' فرديناند برونو ''Ferdinand Brunot'' ''و''شارل سينيوبوز ''Charles Seignobos'' ''و''إريك هوبسباوم ''Éric Hobsbawm'' ''و''هانس أولريخ فيلور ''Hans-Ulrich Wehler'' ''و''فكتور كرادي ''Victor Karady'' ''و''ستيفان كوليني '' .''Stefan Collini''توزعت المشارب الثقافية والاتجاهات النظرية والإبستيمولوجية لهؤلاء المؤرخين، لكن تركز اهتمام كريستوف شارل في محاولة الإجابة عن السؤال التالي :إلى أي حد التزم هؤلاء المؤرخين بالقضية التاريخية والمسائل الاجتماعية والسياسية؟

للإجابة عن هذا السؤال الإبستيمولوجي يتتبع كريستوف شارل المسار العلمي لهؤلاء المؤرخين، من جهة، بهدف التذكير والاعتراف بإسهاماتهم المختلفة في بناء التاريخ المعاصر والراهن، ومن جهة أخرى يقف عند اختياراتهم المنهجية والنظرية وتأثيرها في بناء المعرفة التاريخية المعاصرة. فسواء تعلق الأمر بالتأريخ للحداثة، والإمبريالية وللمثقفين أو للمجتمع الفرنسي أو الألماني أو البريطاني، فإن العودة إلى الأصول تظل خيارًا إبستيمولوجيا لا غنى عنه من أجل إنتاج كتابة تاريخية متفاعلة مع العلوم الاجتماعية، في إطار تجديد الحوار الإبستيمولوجي مع السوسيولوجيا على وجه الخصوص.

إن الأزمة الثلاثية التي تمر فيها العلوم الاجتماعية الأميركية) المنهجية، والسياسية والنظرية)، فرضت على المختصين العودة إلى الأصول المنهجية والنظرية للرواد الأوائل (بخاصة علماء الاجتماع) في إطار مقاربة انعكاسية ونقدية ذات بعد إبستيمولوجي تهدف إلى المصالحة بين العلوم الاجتماعية والمجتمع. لذلك يمكن اعتبار تشجيع

ثقافة الاعتراف بالمؤرخين)سواء الغربيين أو العرب) شرطًا لا غنى عنه للمصالحة مع الماضي والحاضر والبحث عن صيغ نظرية ومنهجية رائدة لتعزيز الحوار المستقبلي مع العلوم الاجتماعية.

إضافة إلى ذلك، لم يعد التاريخ، كمعرفة علمية بالماضي الإنساني، مجرد ترسيمات أكاديمية حول المجتمع والثقافة، بل أصبح اليوم يفرض على المؤرخ ضرورة ربط العلمي بالاجتماعي والنقدي بالسياسي، وبالتالي الدمج بين القضية التاريخية والمسائل الاجتماعية والسياسية اقتداءً بالرواد الأوائل وسيرًا على خطاهم، مع الأخذ في الحسبان الخصوصيات المعاصرة للحضارة الإنسانية (قضايا البيئة، الحروب والصراعات.(

في الختام، يمكن أن نعد ''الإنسان المؤرخ'' دعوة صريحة إلى تعزيز مسلسل تجديد الحوار بين العلوم الاجتماعية من جهة، والتاريخ والسوسيولوجيا من جهة أخرى. لذلك سيكون هذا الكتاب مرجعًا لا غنى عنه لتكوين الطلبة، والأساتذة والمهتمين بالقضايا الإبستيمولوجية والمنهجية للتاريخ الراهن والمقارن، لكونه يزودنا بعدة منهجية وتصورات إبستيمولوجية ونقدية تنتصر للحوار وتتجاهل الانغلاق في إطار البحث عن إنتاج كتابة تاريخية كونية تنظر بأهمية إلى الحق المجتمعي والإنساني في إنتاج التاريخ المحلي وكتابة التاريخ الكوني.

علاوة على ذلك، نجد أن ''الجماعات العلمية'' في حاجة ماسة إلى تبني رؤية انعكاسية لتنمية وعي وحدة البحث العلمي العربي ووحدة وعي البحث العلمي العربي، في إطار تنمية الاهتمام بالإبستيمولوجيا كتخصص مرجعي لا غنى عنه ضمن الدراسات التاريخية والمقارنة (وأيضًا ضمن مختلف العلوم الاجتماعية والإنسانية(، يمكن من خلاله إنتاج معرفة تاريخية في العالم العربي قادرة على اختراق الخفي والتعمق في الظاهر، في إطار تجديد الحوار بين التخصصات المجاورة وتعزيز قيم النقد الذاتي والانعكاسية الذاتية لدى ''الجماعات العلمية''

التكامل العضوي بين التاريخ والعلوم المساعدة

وطّد ميشله – من خلال مشروع البعث الشّامل للماضي – علاقة التّاريخ بالعديد من العلوم الاجتماعيّة[2]؛ إذ استعان في سعيه إلى بعث وإحياء كلّ ما يتعلّق بالنّشاط الإنسانيّ بالعلوم المساعدة لعلم التّاريخ – كالفلسفة والجغرافيا والإنتروبولوجيا – وهي مقاربة لم يسبقه إليها أي مؤرّخ، فكيف أرسى هذا المؤرّخ علاقة تكامليّة للتّاريخ بهذه الفروع المعرفيّة الثّلاثة؟

I – علاقة التّاريخ بالفلسفة :

كانت الفلسفة أحد الحقول المعرفيّة الّتي وطّد هذا المؤرّخ علاقة التّاريخ بها، فقد درّس التّاريخ والفلسفة في المدرسة العليا للأساتذة، في إطار العلاقة التّكامليّة لهذين العلمين، وليس كحقلين معرفيّين مستقلّين عن بعضهما

[2] ياسين زينون، "التّكامل بين التّاريخ والعلوم الاجتماعيّة لدى ميشله"،مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، 22 غشت 2017 .

البعض، ولقّن طلّابه – في دروس التّاريخ – بعض النّظريّات الميتافيزيقيّة، ومَهَّدَ لدروس الفلسفة بدروس التّاريخ، عبر إعطائه مثلًا: نبذة عن التّاريخ الإغريقيّ قبل حديثه عن الفلسفة الإغريقيّة.

يقول بول ڤيالنكس (Paul Viallaneix) في هذا الصّدد: "جاءت دروس سنتَي (1828 – 1829م) لتشهد بأنّ ميشله وضع فلسفة شخصيّة للتّاريخ، قادرة على جعل التّاريخ التّقليديّ علمًا جديدًا، ويفصح ميشله عن توجّهه الّذي يعدّ التاريخ والفلسفة كلًّا لا يتجزّأ بقوله: "تُشَكِّلُ الفلسفة والتّاريخ – إلى غاية أيامنا هاته – موضوعَين لدراستَين مختلفتَين تمامًا، رغم أنّ كلًّا منهما يُثَبِّتُ الآخر؛ فكلاهما لا يمكنه الوصول بمفرده إلى أعلى درجات اليقين، لذلك؛ سنخصّص دراسة موحّدة للتّاريخ والفلسفة؛ اللّذين إن تحقّق ارتباط قويّ بينهما، فسيتمكن كلّ منهما من نجدة الآخر."

من هذا المنطلق؛ وظّف ميشله الفلسفة في دراسة ماهيّة الإنسان، واستعان بالتّاريخ لمناقشة تمظهرات الوجود الإنسانيّ وتحليل العلاقات الإنسانيّة، "يشكّل تاريخ الإنسان وفلسفة الإنسان الهدف المشترك المتوخّى من أبحاثنا؛ فالإنسان يتمظهر لنا بشكلين مختلفين :الإنسان كفرد، وككائن اجتماعيّ، لذلك؛ سنهتم بدراسة الإنسان بمفرده وفق مقاربة فلسفيّة، وبدراسة الإنسان ككائن اجتماعيّ وفق مقاربة تاريخيّة."

ويَعْدّ هذا المؤرّخ الحرّيّة المحرّك الأساس لتطوّر البشريّة، ويشير إلى أنّ محطّات الفشل الّتي عرفتها الإنسانيّة على مرّ تاريخها لم تُعِقْ مسيرتها نحو التقدّم، "تَخْرُجُ كلّ حقبة حضاريّة من حقبة من الهمجيّة، لتبدأ الأشياء – دائمًا – من نقطة انطلاقها"... ، ويرى أنّ الفلسفة تهتمّ بدراسة ثلاثة مجالات رئيسة، هي: نظام الكائنات، وطبيعة الإنسان، وفنّ الرّقيّ بالجنس البشريّ برمّته، ويوضّح عدم إمكانيّة مقاربة الحقائق التّاريخية في شموليتها، إذا لم تُوظَّف الفلسفة في ذلك، قائلًا: "لا يمكن الوصول إلى المعرفة الكاملة إلّا بمقاربة الفرد والكائن والفلسفة والتّاريخ."

II – علاقة التّاريخ بالجغرافيا

يرى هذا المؤرّخ أنّه لا يمكن إعطاء صورة شاملة عن الحقائق التّاريخيّة، إذا لم تُقارب في بعدها الجغرافيّ، "يبقى الشعب في حاجة إلى قاعدة صلبة وجيدة، تتمثّل في الأرض الّتي تحمله وتغذّيه؛ إذ سيبدو هذا الفاعل التّاريخيّ (أي الشعب) بدون قاعدة جغرافيّة، وكأنه يمشي في الفضاء، كما هو حال اللوحات الصّينيّة الّتي تغيب فيها الأرض، وتجب الإشارة إلى أن الأرض لا تُشكّل مسرح الأحداث فقط، لكنّها تؤثّر – بمائة طريقة – من خلال التّغذية والمناخ، وغير ذلك؛ فكما يكـون العشّ يكون الطّائر، وكما يكون الوطن يكــون الإنسان، ويضيف ميشله مؤكّدًا على العلاقة التّكامليّة القائمة بين التّاريخ والجغرافيا، قائلا: "التّاريخ هو جغرافيا أوّلًا وقبل

كلّ شيء؛ فلا يتعيّن علينا الحديث عن الحقبة الفيوداليّة أو المدنيّة؛ بل يتوجب علينا أن نحدّد الشّكل الجغرافيّ لهذه المدن المختلفة، التي نتمكّن بثمارها من شرحها، أقصد؛ عن طريق رجالها وأحداثها."

لذلك؛ كانت لهذا المؤرخ اهتمامات جغرافيّة، ويتّضح لنا ذلك من خلال الإشارات الواردة في الرّسالة الّتي وجهها بتاريخ (25 شباط 1834م) إلى نِزار(Nisard) ؛ إذ ذكر فيها أنّه قد راودته قبل كتابة مؤلّفه "تاريخ فرنسا "(Histoire de France) فكرة إجراء بحث حول الخصائص الجغرافيّة لمختلف المناطق الفرنسيّة، بَيْدَ أنّه سرعان ما تخلّى عن مشروعه هذا مؤقّتًا، عملًا بنصيحة إيدواردز (Edwards) وأصدقاء آخرين له، لا سيّما بالنّظر إلى الأسفار العديدة الّتي يتطلّبها إنجاز هذه الدّراسة، "لقد تأجّل هذا المشروع لمدّة سنتين، لكنّني سأنفّذه لاحقًا، وهو الاهتمام ذاته الذي لمسناه لديه من خلال الأولويّة الّتي أعطاها للجغرافيا بمحاضراته في جامعة السّوربون وكوليج دوفرانس، وحاول فيها تفسير التّاريخ بالجغرافيا، سواء تعلّق الأمر بدروسه حول تاريخ اليونان أو ألمانيا، ممّا يوضح وعيه بارتباط التّاريخ بالجغرافيا

لم يكن هذا المؤرّخ أوّل من أدرك العلاقة التّكامليّة القائمة بين التّاريخ والجغرافيا؛ بل سبقه إلى ذلك مؤرّخون آخرون، أمثال: بيير دونو(Pierre Daunau) ؛ الّذي قال في هذا السّياق: "إنّ الجغرافيا والكرونولوجيا هما عينا التّاريخ"، مستدلًّا على ذلك بمقولة كانط" :(kant) لفهم أيّ حدث؛ لا بدّ من طرح السّؤال الآتي: أين ومتى؟، لكنّ الطّريقة الّتي وظّف بها ميشله الجغرافيا في دراسة التّاريخ، حملت نوعًا من التّجديد، وهو ما يعكسه مؤلّفه: تاريخ الجمهوريّة الرّومانيّة(Histoire de la République Romaine) ؛ الصّادر سنة 1831مالّذي استهلّه بوصف جغرافيّة إيطاليا، واستعان فيه بمؤلّفات الجيولوجيّين وعلماء الأحياء، وضَمَّنَهُ انطباعاته بخصوص هذا الموضوع، لكن أكثر إصدارات هذا المؤرّخ تبيانًا لحرصه على دراسة التّاريخ بالجغرافيا، وهو الجزء الثّاني من مؤلّفه: "تاريخ فرنسا" الّذي أصدره سنة 1833م واستهلّه بكتيّب أعطاه عنوان "جـدول فرنسا"(Tableau de France) ، أوضح فيه الخصائص الجغرافيّة لمختلف المناطق الفرنسيّة، ممّا جعل مؤلّفه هذا، أوّل كتاب حول تاريخ فرنسا يستهلّه بكتيّب جغرافيّ

استعان ميشله – في تأليف كتيّبه "جدول فرنسا" – بتقارير الرّحلات الّتي قام بها كلّ من: أرثير يونگ (Arthur Young)إلى فرنسا، وجونود (Genoude) إلى منطقة لانجو(L'Anjou) ، وميلين (Millin)إلى الوسط الفرنسيّ، وبعث لنفس الغرض – في 21 كانون الثّاني 1832 م – رسالة إلى إيلي دو بومونتElie de Beaumont) ؛ تضمّنت أسئلة حول الخصائص الجيولوجيّة لبعض المناطق الفرنسيّة، وقد زوّده بمجموعة من المعطيات، اعتمادًا على خريطته الجيولوجيّة

لقد أثّر هذا الكتيّب في أعمال المؤرّخين الفرنسيّين الّذين قاربوا الحقائق التّاريخيّة في بعدها الجغرافيّ، وهو تأثير نلمسه في مؤلَّف ڤيكتور ديريي" (Victor Duruy) مدخل عامّ إلى تاريخ فرنسا / "(Introduction générale à l'histoire de France)الصّادر سنة الّذي تضمّن بعض عبارات ميشله الواردة في كتيّب: "جدول فرنسا"، وعلى سبيل المثال؛ ذكر ميشله في مؤلّفه هذا: "لا يجب أن نأخذ مركز الوسط، لِنَجِدَ نواة فرنسا الّتي يتعيّن أن ينضمّ إليها الجميع، إنّها بورج"... (Bourges) ، أمّا لدى دوريي؛ فنقرأ قوله: "ليس للمنطقة الغالية مركز جغرافيّ يتم قياسه بواسطة بركار، إنّه بورج."

III – علاقة التّاريخ بالإنتروبولوجيا

يرى ميشله أنّ المصادر الأدبيّة والفنّيّة توفّر للمؤرّخ معطيات تاريخيّة تعادل ما توفّره له المصادر والوثائق، وهو توجّه لم يسبقه إليه أيّ مؤرّخ، ما شكّل أحد مظاهر التّجديد في مقارباته التّاريخيّة"، لكنّ المؤرّخ – وهو مفتقد لهذه الأدوات الخاصّة المتمثّلة في العقود والوثائق – تأتيه نجدات متعدّدة – من كلّ مكان – ترتبط بالأدب والفنّ، فهنا – أيضًا – أنا مضطّر لأن أقول: (إنّني كنت وحدي)، لقد كتب المؤرّخون تاريخًا سياسيًّا فقط، ركّز على أفعال الحكومات والمؤسّسات، دون أن يأخذوا بعين الاعتبار ما يرافق ويشرح ويؤسّس هذا التاريخ السّياسيّ؛ من ظروف اجتماعيّة واقتصاديّة وصناعيّة، وتلك المتعلّقة بالأدب والفكر."

لقد أولى هذا المؤرّخ – في إطار مقاربته الإنتربولوجيّة للتّاريخ – أهميّة قصوى لدراسة الواقع المعاش لمختلف فئات المجتمع الفرنسيّ؛ فميزانيّة الأسر وتغذيتها ولباسها بإيحاءاته الاجتماعيّة، كلّها عناصر شدّت انتباهه الّذي تركّز – بشكل كبير – على ما كان منبوذًا في التّحليل التّاريخيّ، من قبيل؛ غير المنطقيّ، والهرطقات، والسّحر، والمقصّيّين، والثّقافة الشّعبيّة، وهو أمر تعكسه دراسته لتأثير شرب القهوة – كعادة استهلاكيّة – على حساسيّة النّخب وسلوكها في المجتمع الفرنسيّ للقرن الثّامن عشر، ويوضّحه – أيضًا – وصفه للمناخ التّراجيديّ لقرن لويس الرّابع عشر، الّذي سيطرت عليه الأزمات الغذائيّة والبؤس الشّعبيّ، معتمدًا البحث الإثنولوجيّ ليتناول الواقع التّاريخيّ بالدّرس

كان ميشله سبّاقًا إلى إدراك أنّ المصادر الفنّيّة توفّر للمؤرّخ معطيات تاريخيّة مهمّة، وهو وعي رصدناه لديه من خلال اطّلاعنا على ما دَوَّنَهُ في مذكراته المتعلّقة بتاريخ فرنسا في القرن السّادس عشر الميلاديّ، حول بعض المصادر الفنيّة، من قبيل: اللّوحات والميداليّات والعملات والمآثر والتّصاميم الهندسيّة، الّتي يمكن اعتمادها في صياغة تاريخ فرنسا في هذه الفترة؛ ففي مذكّراته ليوم (12 شباط 1826م (نقرأ قوله: "...سيكون الجزء

التّصويريّ جدّ مثير للفضول، ويمكننا أن نعتمد فيه على الميداليّات والعملات، وعلى مآثر مدينة باريس في هذه الحقبة وهندستها وتصميمها."

إنّ اهتمام هذا المؤرّخ بالفنّ وحرصه على اعتماده كمصدر تاريخيّ، تفسّره المكانة الّتي خصّصها له في مذكّراته اليوميّة؛ الّتي شرع في صياغتها بانتظام ابتداء من سنة 1830م، تحديدًا، في سفره الأوّل إلى إيطاليا بين آذار ونيسان من نفس العام،وواصل كتابتها حتى نهاية حياته، ودَوَّنَ فيها ملاحظاته بخصوص الكنائس والقصور والأضرحة واللّوحات والتّماثيل التي اطّلع عليها في زيارته لهذا البلد، وهو أمر لم يسبقه إليه أي مؤرّخ

ويبدو أنّ ميشله اعتمد نوعين من المصادر الفنّيّة كمصادر تاريخيّة، هما: الآثار من جهة، واللّوحات التّشكيليّة والصّور والأختام من جهة أخرى.

- 1الآثار :

اعتمد ميشله المآثر العمرانيّة كمصادر تاريخيّة؛ لاقتناعه بأنّها تمكّن المؤرّخ من فهم بنيات المجتمعات السّالفة، طالما أنّها تتضمّن معطيات مهمّة عن الخصائص الهويّاتيّة للشّعوب"تظلّ مآثر كهاته وقائع تاريخيّة كبرى،)يكتب متحدّثًا عن كاتدرائيّات: نوتردام دو باري(Cathédrale de Paris) ، وسان دوني Cathédrale de) Saint – Denis)، وريمس.(Reims)

ويبقى هذا المؤرّخ صاحب السّبق في اعتماد المآثر كمصادر تاريخيّة، وحول هذه النّقطة – حين كان بصدد نشر الجزأين – الأوّل والثّاني – من مؤلّفه "تاريخ فرنسا" –كتب يقول: "لم يقارب أحد – قبلي أنا – تاريخ الفنّ خلال العصر الوسيط، لا أستثني من ذلك الألمان، ولا كاتب رواية "سيدة باريس" الذي طاف حول المآثر، أمّا أنا؛ فقد بَيَّنْتُ كيف بَذَرَ ونضج هذا النّبات الحجريّ."

لقد أمضى ميشله – في إطار توجّهه هذا – معظم أوقاته في سفره الأوّل إلى إيطاليا سنة 1830م في زيارة المدن الّتي سبق أن زارها أسلافه، بَيْدَ أنّه اهتمّ – على نقيضهم – بما هو متواضع وغير مألوف في المآثر الإيطاليّة، أكثر من اهتمامه بما هو رفيع وخاصّ فيها، كما لم يترك ملاحظاته الّتي دوّنها بخصوص الفنّ والعمارة الإيطاليّين – في زيارته هاته – حبيسة مذكراته؛ بل وظّفها بشكل مباشر في مؤلّفاته التّاريخيّة الأكثر أهميّة، كما هو الشّأن في كتابه: مدخل إلى التّاريخ العالميّ(Introduction à l'histoire universelle) ، وذلك بغية رصد الحياة الفردانيّة الّتي ميّزت إيطاليا العصر الوسيط، وتبيان ريادة هذا البلد آنذاك في ميدان العمارة المدنيّة، "كان الشّعب الإيطاليّ؛ الشّعب الوحيد الّذي توفّر على هندسة مدنيّة عبر العصور...؛ فكلمة بونتيفيكس (Pontifex)تعني: بناء القناطر. لقد كانت للمآثر الإتروسكيّة المختلفة منفعة عمليّة، إنّها أسوار مدن وقنوات

وأضرحة؛ ففي الوقت الّذي كانت فيه كلّ من ألمانيا وإنجلترا وفرنسا لا تبني إلّا صروحًا دينيّة، كانت إيطاليا تشقّ الطّرق وتضع القنوات.

كما دوّن ميشله ملاحظاته حول المآثر الإيطاليّة في مؤلّفه "تاريخ الجمهوّرية الرّومانيّة: "أن يتأمل المرء من مبنى الكابيتول(Capitole) ، هذه المدينة المأساويّة (أي روما)؛ فإنّه يفهم بسهولة – من خلال مآثرها الرّئيسة – تطوّر تاريخها ووحدته؛ إذ يُقَدِّمُ لَكَ المعرض Le forum) الجمهوريّة، أمّا البونتيون(le panthéon) ، وأوغيست(Auguste) ، وأكريبا(Agrippa) ، فَتُمَثِّلُ اتّحاد كلّ شعوب وآلهة العالم القديم في إمبراطوريّة واحدة، في حين يتموقع هذا الأثر – أي المعرض (Forum Le) – المنتمي إلى الحقبة الوسطى من التّاريخ الرّومانيّ، في مركز مدينة روما التي يرى المرء من طرفيها في الكوليزي: الصّراعات الأولى للمسيحيّة، وانتصارها، وهيمنتها على كنيسة سان بيير.(Saint – Pierre)

لقد فنّد هذا المؤرّخ – في إطار اعتماده المآثر كمصادر تاريخيّة في كتابته لتاريخ فرنسا خلال العصر الوسيط – طرح ڤيكتور هيجو القائل: إنّ الهندسة الوسيطيّة كانت مزاجيّة، وأوضح – عكس ذلك – أنّها عَبَّرَتْ عن تناسق منطقيّ، قائلًا: "منطق متميّز للحجارة"، وقارن – في إطار توجّهه هذا – تصاميم الكنائس الفرنسيّة الّتي كان شغوفًا بزيارتها مع تصاميم كنائس إنجلترا وألمانيا الّتي لم تكن له معرفة مباشرة بها، واستشار في ذلك تجار العاديّات المحلّيّين الّذين أوضحوا له أنّ التّغيّرات الّتي عرفتها أشكال النّوافذ (النّوافذ العريضة، أو المـزدوجة، أو المقسّمة، عن طريق دعامات بسيطة أو برّاقة)، يمكنها أن تساعد في تحديد تاريخ تشييد أي بناء، واطّلع لنفس الغاية بِلِيُون(Lyon) ، وبال(Bâle) ، وكولون(Cologne) ، على النّظريّات الحديثة المتعلّقة بالفنّ القوطيّ، كما دوّن في مذكّراته ملاحظاته بخصوص المآثر التي تعكس فن العمارة القوطيّة في رووان وسان أووون (Saint – Ouen) ، وهي الملاحظات الّتي وظّفها في كتابة الجزء الثّاني من مؤلّفه "تاريخ فرنسا"؛ الّذي ناقش فيه مدلول المعتقدات المسيحيّة في فرنسا خلال العصر الوسيط

كما درس – في إطار إعداد الأجزاء اللّاحقة من مؤلّفه هذا – القبور المنتمية إلى هذه الحقبة، الّتي اعتمدها المؤرّخون كمصادر حول تاريخ هندام وأنساب وشعارات الأشراف، وللتّأريخ للأحداث الّتي لا توفّر المصادر التّاريخيّة معطيات بشأنها، لذلك؛ تمت منذ عصر باولو جيوڤيو (Giovio Paolo) الإشادة بأهميّة هذه القبور، نظرًا إلى ما توفّره من رسوم تصويريّة عن الرّجال المشهورين."

غير أنّ ميشله كان أوّل من أدرك أهميّة هذه القبور في تمكين المؤرّخين من معطيات دالة على تغيّر موقف الإنسان الفرنسيّ من الموت خلال العصر الوسيط؛ فقد انطلق ممّا ذكره لويس دوق أورليان (Louis duc d'Orléans سنة (1407م)، في وصيّة بناء قبره الّتي أوصى فيها بأنّ يُدْفَنَ وهو مستلقي على ظهره، وبأن

توضع له أسفل الرّأس عوض وسادة حجرة صلبة على شكل صخرة، وعند قدميه صخرة أخرى صلبة، ليستنتج أنّ الإيمان الّذي ساد لدى النّاس بالرّوح والتّقاء الأرواح بعد الموت في أوربا العصر الوسيط، أدّى إلى غياب اهتمامهم برفات الموتى، ما نتج عنه عدم بنائهم لقبور فخمة ، لكنّ تناقص إيمانهم – ابتداء من القرن 15 – بعالم ما بعد الموت، دفعهم إلى تزيين رفات موتاهم وتمجيدهم، ما جعل القبر معبدًا صغيرًا أو كنيسة، أمّا دفينه فأصبح إلاهًا.

×اللّوحات والصّور والأختام :

حرص ميشله على إعطاء صورة دقيقة للمظهر الخارجيّ للشّخصيّات الفاعلة في الأحداث التّاريخيّة، لكنّ السّبب الرّئيس المفسّر للاهتمام الّذي أولاه لفنّ الصّورة؛ هو أنّه كان يعدّ الطّريقة الّتي يؤرّخ بها للأحداث تبقى سطحيّة، وترتكز على الوصف دون الشّرح ، وهي قناعة قادته باعتماد لوحات كوريج (Corrège) لمعرفة الأسباب الّتي دفعت فرانسوا الأوّل(François 1er) ، في شتاء عام 1524م، إلى تمديد عطلته في شمال إيطاليا، ممّا عرّضه للهزيمة والأسر في معركة باڤي(Pavie) ، فخلص إلى أنّ إعجاب هذا الملك بالنّساء الإيطاليّات، كان السّبب الرّئيس في ذلك ، وحول هذه النقطة كتب يقول: "كلّ شيء هو امرأة في إيطاليا"؛ إذ يبدو أن هاته النّسوة اللّاتي صَوَّرَهُنَّ كوريج في لوحاته، وكنّ فظّات، وسيّئات التّغذية، وجدّ نحيفات، كنّ – مع ذلك – جميلات، "تَفَجَّرَ مظهر جديد ورفيع وجميل، تمثّل في الضّحك المَرَضِي والألم الخجول الّذي يَضْحَكُ حتّى لا يبكي؛ فمن سيرصد هذا المظهر؟ لقد رصده القرويّ اللّومبارديّ لقرية كوريجيو(Corregio) ؛ الّذي قبض على ما شاهده في إيطاليا الجديدة هاته، الشّابّة والمعانية والمتوترة؛ إنّها القدّيسة الصّغيرة كاترين (Catherine) الّتي صوّرها في لوحته "الزّواج السرّيّ(Mariage mystique) ، كشخص صغير لن يعيش أو سيبقى صغيرًا، وأكثر تعرّضًا للمرض، وأقلّ قدسيّة، وهو ما يتّضح لنا في الالتقاء غير المنتظم لليدين الّذي صوّره هذا الفنان التّشكيليّ بدقّة؛ فقد وُجِدَتْ هنا – مع ذلك – ملحمة أليمة.

وقارن ميشله – في إطار توجّهه هذا – الصّورة المحفوظة في دار الصّور للإخوة الثّلاثة كولينييّ الّتي رسمت – على الأرجح – قبل اغتيال ڤاسبار دوكولينيي، سنة 1572م، مع النّقش الّذي جسّدهم فيه مارك ديڤال (Marc Du Val)عام 1579م، وهي فترة تزايد فيها نفوذ الهيجونو (Huguenots) داخل البلاط ، فخلص إلى أن هذا النّقش لم يعط صورة حقيقية عن ڤاسبار دوكولينيي، بعد أن جسّده شخصيّة محبّة للحرب، "كان يحلم صاحب النّقش بمجزرة سان بارتيلمي (Saint – Barthélemy) ، فوضعها له على وجهه (أي ڤاسبار دوكولينيي)! لقد اعتقد أنه كان رجل حرب، غير أنّه يظلّ أكثر الرّجال ميلًا إلى السّلم."

كما اطّلع هذا المؤرّخ على الصّور المعروضة في دار الصّور لـ (كاسبار دوكولينيي)، لمعرفة الأسباب الّتي دفعته إلى الاستسلام في مجزرة سان بارتيلمي، "ماذا حصل – إذن – لهذا القبطان العجوز – ذي التّجربة الذي أفنى حياته في القضايا – حتّى يستسلم لأعدائه ويُسَلِّمَ نفسه؟ فهل أصبح هذا الأميرال كولينيي – فجأة – طفلًا وفتاة صغيرة غبيّة؟ أم يتعيّن علينا القول: إنّ زواجه الثّاني قد ليّن قلبه، وجعله يتمنّى الحرب بأيّ ثمن؟ وإنّ هذا الزّوج الطّيب للغاية، كان مدفوعًا – دائمًا – من قِبَلِ زوجاته؛ من طرف إحداهما إلى الحرب، ومن لدن الأخرى إلى السِّلْم؟ إنّ تفسيرات كهاته لا تتبادر إلى الذّهن، إلاّ عندما نرى في رسومات فولون Foulon) الرّائعة وجه الرّجل ونظرته الحازمة والمتأملة، ورأس قاضي إسرائيل هذا، وهذا الوجه القاسي باندهاش".

اعتمد ميشله – أيضًا – على أختام الملك شارل الخامس(V Charles) ؛ الّتي صَوَّرَتْهُ وهو جالس، للتّأكيد على أنه كان أول ملك حداثي لفرنسا، "كنّا نتصوّر حتّى الآن أنّ رجلًا واحدًا يمكنه أن يمتطي الحصان؛ هو فيليب الجميل(Philippe – le bel) ، أمّا شارل الخامس، فكان يحارب من كرسيّه بشكل جيّد.

لقد رفض هذا المؤرّخ أن يهتمّ التّاريخ بما هو سياسيّ فقط، ودعا إلى تاريخ شامل وعميق ومادّيّ يؤسّس لتاريخ الثّقافة المادّيّة، ويرصد المناخ والتّغذية والظّروف الطّبيعيّة، ونَظَّرَ –أيضًا – لتاريخ روحيّ يختصّ بدراسة العادات، ممّا أدّى إلى تأسيس التّاريخ الأنتروبولوجيّ، غير أن اقتناعه بأنّ المصادر والوثائق توفر – فقط – أعراض حقيقة تاريخيّة يتعين على المؤرّخ إعادة بنائها، ورغبته في رصد رؤى وإحساس إنسان الزّمن الماضي، معتمدًا في ذلك مقاربة إثنولوجية بالأساس، وإعطاءه للحركات الجماعيّة اللّاواعية مكانة متميّزة في كتاباته التّاريخيّة، دون إعارة كبير اهتمام للعظماء والمشاهير، كلّها معطيات لم تُرض المدرسة الوضعيّة الّتي بنت المعرفة التّاريخيّة على أساس معالجة – علميّة وموضوعيّة – لأحداث الماضي، لذلك؛ لم تُبْدِ كبير اهتمام بأسطغرافيّته.

لكن، إذا كان ميشله قد رُفِضَ من طرف هذه المدرسة، فقد أغرى – بالمقابل – مؤسّسي مدرسة الحوليّات بروّادها، أمثال: لوسيـان فيبفر(Lucien Febvre) ، ومارك بلوخ Marc Bloc) ، وفرناند بروديل Fernand Braudel)، وحظي بحظوة متميّزة لدى مؤرّخي مدرسة التّاريخ الجديد، الّذين نوّهوا بالسّبق الّذي حقّقه في مختلف مقارباته التّاريخيّة، لذلك؛ عدّه جاك لوگوف Jacques Le Goff) رسول التّاريخ الجديد.

إذن، وطّد ميشله – عبر مشروع البعث الشّامل للماضي – علاقة التّاريخ بعلوم اجتماعيّة عدّة؛ سواء تعلّق الأمر بالفلسفة الّتي اعتمدها في بعض مقارباته لتفسير المنطق المتحكّم في الأحداث التّاريخيّة وأبعادها، أو بالجغرافيا الّتي وظّفها في العديد من دراساته بغية رصد تأثير الأوساط الطّبيعيّة في الوقائع التّاريخيّة، مؤسّسًا بذلك للجغرافيا التّاريخيّة. وأخيرًا؛ بالأنتروبولوجيا، بتناوله – بالدّرس والتّحليل – الخصائص الثّقافيّة للأمم، المتمثّلة في عاداتها وتقاليدها وتغذيتها ولباسها، واضعًا – بالتّالي – الأسس الأولى للتّاريخ الأنتروبولوجيّ.